نحو إطار إسلامي للفهم والتحليل

تأليف
إبراهيم غرايبة

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

obeikandl.com

حقوق الطبع محفوظة
١٤٢٤هـ

obeikandl.com

obeikandl.com

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٩
الاستراتيجية الأمريكية من الردع إلى المنع	١٣
التثقيف الذاتي للمشاركين في الدعوة	١٧
العمل الإسلامي: مرحلة مجتمعية	٢٥
المجتمع الذي يتعلم	٣٥
تحولات السلطة والموارد	٣٩
ثمانون عامًا بحثًا عن مخرج	٤٥
حروب الشوارع العربية	٤٩
عراق جديد.. عالم جديد	٥٧
لو كان في العراق مجتمع أهلي	٦١
وباء المرآة	٦٥
الإعداد الذاتي للداعية.....	٧١
الدعوة الإسلامية في عصر المعلومات.....	٧٥
القراءة: سر الحياة والتواصل	٨١
في الخطاب الإعلامي للعمل الإسلامي	٨٩

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم
مقدمة

يشغلنا كثيرًا فهم الأحداث والقضايا المحيطة بنا وتحليلها، والبحث عن رؤية إسلامية لها تحدد موقفًا مطلوبًا أو فهمًا صحيحًا، وفي المحصلة أن يكون ثمة دراسة ومعالجة منهجية للفهم والتحليل تؤسس لإعلام إسلامي، أو خطاب إعلامي يسعف الشباب المقبل على الإسلام والعائد للالتزام بتعطش وحماس ورغبة.

إن الكثير من المثقفين المسلمين والباحثين يظنون أن الإسلام يقدم قواعد وأفكارًا ونظريات شاملة وجاهزة، وأن الاجتهاد السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي مستمد فقط من فهم النصوص والمراجع ودراستها، ولا يدركون أن النظام الإسلامي تفاعل إيجابي وسليم بين الفكر والعقيدة والثقافة والدعوة، والتحرك بها وسط الواقع والبيئة والمتغيرات والمحدودات الكثيرة والممتدة والمتجددة، ولذلك فإن النظام الاجتماعي الإسلامي ينمو ويتجدد ويضمر ويتراجع ويبدع ويتخلف حسب واقع وحال البيئة المحيطة به من ناس ومجتمعات وحضارة وفاعلية اجتماعية.

وكنا في مرحلة الغياب عن العمل الإعلامي نظن أن تأسيس الخطاب الإعلامي والمنهج الإسلامي في الإعلام وفهم الأحداث

وتحليلها أمر متيسر أو مرهون فقط بممارستنا للإعلام، ولكنا وقعنا بسرعة أسرى خيارين: أن نخوض نموذجاً في العمل نسير فيه مبتدئين، ونتدرج في الخبرات وتراكم المعارف، أو نقتبس النماذج القائمة ونسعى في تطويعها للمبادئ الإسلامية والثقافة التي نعتقد أنها مناسبة، واكتشفنا أننا نفتقر إلى خطاب إسلامي يواكب المفاهيم والمتغيرات الكثيرة، وأن ما نملكه من أدوات إسلامية للفهم والعمل تحتاج هي الأخرى إلى معالجة.

لا تسعفنا منهجية أو طريقة استيعاب النظرية الغربية في الإعلام والسياسة والتحليل ثم محاكمتها إلى الإسلام أو محاولة البحث عن مرجعية إسلامية تدعمها أو تناقضها، فالنظرية ليست فقط محصلة عملية ذهنية أو تجربة علمية أو بحث مجرد أو فهم نظري، ولكنها محكومة بمنظومة البيئة المحيطة من القيم والثقافة والتجارب والعادات والتقاليد.

ولكن الإسلام يقدم أسساً ومرجعيات، وبناءً أساسياً في الاعتقاد والفاعلية والدافعية والتهذيب، وقواعد عامة تصلح أن تبني نظاماً ما صحيحاً وفاعلاً، والنظام لا يبنى فقط بمجرد الحصول على مكوناته، ولكن لا بد من تفاعلها؛ فاجتماع الهيدروجين والأوكسجين لا يعني بالضرورة تكون الماء منهما ولكن لا بد من شروط وبيئة تؤدي إلى تفاعلهما لنحصل على الماء!.

وعندما اقترح الأستاذ مالك بن نبي -رحمه الله- معادلته

المشهورة للنهضة (إنسان+ تراب+ وقت) لم يشغل نفسه بالحديث عن هذه العناصر والمكونات بقدر ما أشغل نفسه بشروط تفاعلها، وكان عنوان كتابه "شروط النهضة" وليس مكوناتها وعناصرها، فالسؤال هو: كيف يحقق الإسلام هذا التفاعل؟ أو كيف يهيئه؟ وكيف نسعى لتحصيل شروطه؟

ولا نحتاج كثيراً لتأكيد أو بيان وجود النظرية الإسلامية للعمل العام والدعوي والإعلامي وصحتها، فالإسلام حقق بمبادئه وأفكاره وتجربته الحضارية والتاريخية أسساً ومداخل ناجحة للعمل الإعلامي والتحرك بالمفاهيم والأفكار، والدعوة إليها.

ويسهل القول أو الاقتراح بالدعوة إلى إعلام إسلامي، ولكن ذلك لا يعفي من محاولة فهم وتقدير واقع وحال المجتمع العربي، ولن تقدم خبرتنا وثقافتنا الإسلامية نظريات وأفكاراً صحيحة للعمل الإعلامي بدون فهم المجتمع المحيط فهماً صحيحاً.

لقد حقق الشباب العاملون في الدعوة الإسلامية تقدماً كبيراً في الإحاطة بفنون الإعلام والاتصال والإدارة، وأمكن لهم بذكائهم وحرصهم أن يستفيدوا من علوم الغرب وتقنياته، ويستوعبوا ما تقدمه الجامعات والمراكز والمؤسسات الإعلامية، وهذا إنجاز طيب، ولكنا تأخرنا في الحقل الذي يجب أن نتفوق ونتميز فيه، وهو استيعاب هذه المعرفة في نموذج بديل، وأدركنا أن الإعلام الإسلامي ليس فقط أدوات الاتصال التي نملؤها بخطاب إسلامي، ولكنه أعقد من ذلك بكثير، وربما يكون

مما يساعد على تحقيق هذا الهدف الكبير عمليات تنظيم للمعرفة المتاحة ثم مقابلتها لاحتياجاتنا وأسئلتنا الحقيقية والأولية.

وقد أتاح لي موقع (**الإسلام اليوم**) أن أطل على زواره ممن أحسب أنهم من المشتغلين أساساً بفهم الإسلام والدعوة إليه، والعمل على تطبيق مبادئه وتعاليمه في شتى مجالات الحياة، وحاولت كما أحسب أن أقدم مداخل وأطبق منهجاً في الفهم والتحليل قائم على تنظيم المعرفة واستيعابها متبعاً هاجساً في نفسي، وهو: كيف نفهم الواقع المحيط بنا، ونحيط بالأحداث إحاطة تبتعد بنا عن الوعي الجاهز المقدم لنا، والإغراق الفج في المعلومات والأخبار والصور، والإتاحة الواسعة المحيرة والمبهرة، ولكنها في الوقت نفسه تحاصرنا بفهم معد سلفاً لا يريدنا أن نخرج عنه؟

كانت مقالات متفرقة، ولكن يجمع بينها هذا الهاجس، وقد لا أكون ناجحاً تماماً في تقديم الهدف الذي أملت بالسعي إليه، ولكن فطنة القراء وإدراكهم بالحاجة إليه تستدرك التقصير والخلل، "وربما مبلَّغ أوعى من سامع"، فلعل القراء يفيدون بها ويقدمون أفضل مما قدرت على تقديمه، وقد رأيت من ذكاء الشباب وإحاطتهم ما جعلني أعتقد أنهم أكثر كفاءة وتأهيلاً للواجبات والأعمال التي كنت أظن نفسي أني أساعدهم في أدائها.

الاستراتيجية الأمريكية من الردع إلى المنع

تعيش الولايات المتحدة مرحلة فريدة في تاريخها الأمني، فهي لا تواجه تهديدًا مباشرًا، وهي القوة العسكرية الأولى والمهيمنة في العالم، ولأجل ذلك وضعت استراتيجية دفاع وقائي لكفالة استمرار هذين الوضعين.

وقد كانت الاستراتيجية الأمريكية للأمن القومي طوال الحرب الباردة سهلة الفهم صعبة التنفيذ، فهي قائمة على احتواء التوسع السوفييتي، وبناء ترسانة هائلة من الأسلحة النووية لردع الاتحاد السوفييتي عن استخدام القوة العسكرية ضد الولايات المتحدة أو حلفائها، وما يشغل التفكير الاستراتيجي الأمريكي بعد الحرب الباردة هو محاولة الإجابة عن سؤال: كيف تستطيع الولايات المتحدة أن تطيل فترة السلام والنفوذ الذي تتمتع به منذ أوائل التسعينات؟

إن الاستراتيجية الجديدة - كما أعلن عنها المسؤولون الأمريكان مرات عدة- قائمة على الوقاية، وتركز على الأخطار التي إذا أسيئت إدارتها (بالمفهوم الأمريكي) يمكن أن تتحول إلى أخطار كبرى تهدد الوجود الأمريكي، وهذه المخاطر ليست في الوقت الحاضر تهديدات ينبغي دحرها أو ردعها؛ وإنما هي مخاطر يمكن منعها والوقاية منها، ومن ثم فإن الولايات المتحدة لن تنتظر وقوع التهديد لمواجهته، ولكنها ستتخذ إجراءات وتدابير، وتخوض حروبًا استباقية لمنع المخاطر قبل وقوعها.

ومن المخاطر المعلنة والتي يمكن أن تتحول إلى تهديدات كبرى:

١- أن تفقد روسيا ودول الاتحاد السوفييتي -السابق- سيطرتها على التركة النووية.

٢- أن تتجه الصين نحو العداء للولايات المتحدة بدلاً من اتجاه التعاون والارتباط بالنظام الدولي.

٣- أن تنتشر أسلحة الدمار الشامل، وتشكل خطراً عسكرياً مباشراً على الولايات المتحدة.

٤- أن تقع على أرض الولايات المتحدة أعمال إرهاب مدمرة على نطاق لم يُعرف من قبل، وبكثافة غير مسبوقة.

وتخطط المؤسسات الأمريكية لإنشاء قدرات جديدة لخوض وإدارة ما تسميه "الحروب الوقائية قائمة" كما يقول منظرو وواضعو السياسات الدفاعية الأمريكية على التحليل المؤسسي وتحليل النظم، والتعبئة لمواجهة حالات الطوارئ الوشيكة، ودور قوي ولكنه مساند فقط تقوم به وزارة الدفاع، وتطوير تكنولوجيا وتكتيك مكافحة الإرهاب.

وأعدت وفق المبادئ السابقة استراتيجية أولية قائمة على أربعة عناصر وهي: المعلومات والإنذار، والمنع والردع، وإدارة الأزمات ونتائجها، وحيازة التكنولوجيا اللازمة.

ويقترح (وليام بيري) - وزير الدفاع السابق- في كتابه "الدفاع الوقائي" إقامة مؤسسة تسمى "المركز القومي للمعلومات المتعلقة بالإرهاب"، ويكون هذا المركز مسؤولاً عن جمع وإدارة وتحليل ونشر المعلومات، والتحذير من

أعمال الإرهاب المدمر، ويقوم المركز بأعمال مثل: اعتماد الاحتياجات لجمع المعلومات من الأجهزة الحكومية والقضائية، واستقبال المعلومات وتخزينها، وإعداد تقارير يمكن إرسالها إلى أية جهة تحتاج إليها، وتقويم برامج جمع المعلومات، وتيسير التعاون الدولي بشأن معلومات مكافحة الإرهاب.

ولمنع الإرهاب وردعه؛ يقترح (بيري) مبادرة قانونية دولية لجعل أي تطوير أو حيازة لأسلحة الدمار الشامل جريمة عالمية، وإنشاء معهد قومي للمعلومات، وزيادة الدعم الفيدرالي لتحليل المخاطر الاستراتيجية لمشكلة الإرهاب المدمر.

وتحتاج جهود مكافحة الإرهاب المدمر- برأي (بيري)- إلى تحليل ذكي، فليست كل المخاوف تستحق نفس القدر من الاهتمام، ودور تحليل المخاطر أو التحليل الاستراتيجي للحد من المخاطر هو بحث المخاطر وتحديدها، وإقامة نهج نظامي للمتابعة الواسعة والمتابعة الموجهة لمجالات بذاتها، والإنذار، والوقاية ،والحماية، والردع، والتدخل والعمل المستتر، وإدراة النتائج، والاستطلاع، والعمل العقابي، واستخلاص الدروس بعد وقع الأحداث.

إن عدم وجود خطر داهم من الدرجة الأولى يدفع الولايات المتحدة إلى إهمال وتقليص ميزانيات إدارة مؤسسة الدفاع، وقد يلزم للمخططين عمليات إرهابية تؤدي إلى احتجاجات شعبية، ومطالبة باتخاذ تدابير حاسمة لضمان عدم تكرار مثل هذه الأعمال، ويرى البعض أنه ليس هناك

ثمن -مهما كان- أغلى من الحماية بما في ذلك الحد من الحقوق والحريات، وهذا ما اقترحه (بيري) تمامًا عام ١٩٩٧م.

وسيكون الدفاع الوقائي دليلاً إرشاديًّا للاستراتيجية الأمريكية للأمن القومي، ويختلف عن الردع اختلافًا جوهريًّا، فهو استراتيجية سياسية عسكرية عريضة، ويعتمد على أدوات السياسة الخارجية: السياسية والاقتصادية والعسكرية، وستكون موارد وزارة الدفاع وتكنولوجيتها حاسمة في مواجهة الإرهاب والتهديد المباشر أو غير المباشر للولايات المتحدة.

وقد وضعت وزارة الدفاع عام ١٩٩٧م برنامج تشكيل البيئة الدولية الذي يعرض أفكار واستراتيجيات التصدي للمخاطر في كوريا والخليج العربي، وحفظ السلام، والاستعداد لتكنولوجيا جديدة لدرء التهديدات الجديدة الكبرى إذا ظهرت في المستقبل، وقد ذكر (بيري) في كتابه أن تطبيق الاستراتيجية الجديدة وإنجاحها، وتكوين حالة شعبية عامة مؤيدة لها يحتاج إلى وقوع حالات محدودة ومعقولة من الإرهاب ، والهجوم بأسلحة كيماوية وغير تقليدية في الولايات المتحدة؛ لتمرير التخلي عن تقديس الحقوق المدنية والحريات، ولتطبيق حالات تدريبية أشبه بالمناورة على المخاطر المتوقعة.

ولا شك أن من يقرأ كتاب (بيري) لن يفاجئة الكثير من الحروب والأحداث التي جرت، فعلى سبيل المثال: هل كان ما قيل عن محاولات لنشر جرثومة الجمرة الخبيثة في الولايات المتحدة عمليات إرهابية بالفعل، أم أنها مناورة تدريبية؟ فإذا كانت إرهابا؛ فأين هم الإرهابيون الذين نفذوا هذه الأعمال؟!.

التثقيف الذاتي للمشاركين في الدعوة

الثقافة أساس هام في برامج التكوين والإعداد والتدريب لدى المؤسسات عامة والعمل في الدعوة إلى الإسلام بخاصة؛ لأنها تعتمد التربية والإعداد هدفًا في إنجاز المراحل كافة، فالأهداف الأساسية والبرامج يلزمها فئة ملتزمة بالإسلام، تفهمه وتدعو إليه، وتقدمه نموذجًا في كل مرافق الحياة وشؤونها.

والتعلم الذاتي من أهم وسائل الثقافة، وأكبر عامل في نجاح التربية والإعداد وفاعليتهما، والقيادة الناجحة هي التي تمارس الثقافة الذاتية، بينما عطاء القادة والدعاة والمربين يقلّ حين يغفلون عن تثقيف أنفسهم وزيادة قدراتهم، بل إن هذه الظاهرة في العمل الإسلامي يلزمها الدرس والتفصيل.

والدعاة الذين يكفُّون عن الإعداد النفسي والثقافة الذاتية يؤول أمرهم إلى التخلف عن تلبية ضرورات العمل الإسلامي وجفائها، وكثيرًا ما يتجاوزهم في طريقه إلى إجابة أسس المراحل والظروف، فإذا بقي أحد هؤلاء فإنه يكون أحد أسباب الفشل، كما في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ**﴾ (النحل: ٧٦).

إن التعليم المستمر الذي يعتمد التعليم والتثقيف الذاتي أساسًا أصبح ركيزة أولى في برامج التدريب والتطوير لدى كل المؤسسات الناجحة،

ولنتصور مديرًا نجح في إدارة مؤسسته ووضع الخطط لها.. كيف حاله إذا وقف ولم يتابع ما ينشر ويجد في مجاله منذ تخرج من دراسته بعد خمس سنوات أو عشر؟ أو طبيبًا يعالج الناس ويداويهم دون إحاطة بما يجد في عالم الطب والدواء؟ ويقال: إن الطبيب الذي لا يقرأ ويتابع الجديد في اختصاصه يصبح نجارًا.

وإذا كانت الظاهرة السابقة ملحوظة مجمعاً عليها في العلوم والفنون فهي صِدق في المجال الاجتماعي والإنساني والدعوة والعمل الإسلامي من ضمنه، لكنها تتقدم وتتغير وتتطور بسرعة أقل.

والجهد الذاتي في التربية والتعليم والإعداد يعد أهم سبيل للنجاح، فكلما زادت المشاركة في التربية بين الأفراد في شتى مواقعهم زاد النجاح وأثره، فالفرق واضح ولا خلاف عليه بين محاضرة يلقيها أستاذ ويستمع إليه الطلاب وأخرى يشترك في إعدادها وطرحها الأستاذ والطالب.

وإن من الجامعات مثل جامعة الخليج في البحرين ما يتولى الطلبة فيها معظم العملية التعليمية والتدريبية من إعداد، ومناقشة، وخطابة، وبحث في المكتبة، والمختبر، والمستشفى، والمزرعة، والمصنع.. حتى الامتحان، ويكون دور الأستاذ التوجيه والمراقبة والإقرار والتنسيق فحسب، بل إن الطلبة يشاركون في خطة المنهاج واختيار المقررات، ويتابعون أداء المنهاج، وهم يتقاسمون الأدوار والمسؤولية بلا تدخل من الأستاذ الذي يحرص عندما يلجؤون إليه ألا يحل لهم عقدة حلاً يسيراً

سهلاً، بل يدفعهم إلى الاجتهاد والتفكير والبحث!.

وإذا أردنا استعارة الأفكار السابقة وإعمالها في برامج العمل الإسلامي فيمكن القول إن نجاح المناهج والبرامج الثقافية والتربوية وفاعلية العمل الدعوي والتربوي يعتمد على مشاركة جميع الأفراد في الجماعات والمجتمعات والمؤسسات والعمل الذاتي لكل فرد منها.

الأهداف:

تأتي الثقافة الذاتية بأهدافها من أول وأيسر تعريف للداعية، وهو: العمل والدعوة لتطبيق الإسلام والدعوة إليه بين الناس، أو هو: تفاعل حسن سليم بين الإسلام وبين الجماعات والأفراد والمجتمعات.

إذًا فإن الثقافة يجب أن تكون لفهم هذه العناصر وجعلها تتفاعل، فالثقافة الذاتية يجب أن تسري في الأهداف التي تحقق عملية التربية والإعداد، وتنسجم مع أهداف العمل وأساسه، وهو: التحرك بالإسلام بفاعلية ونجاح، وفهم الواقع المحيط وقدر الحال ووضع البرنامج الصحيح.

الأركان الأساسية لفهم المجتمع:

ربما يكون المجتمع قريب الشبه بالإنسان، وهذا ما يجعل فهمه عملية مركبة يصعب وصفها أو تبسيطها وتقديمها وصفة جاهزة، ولكن يمكن اقتراح الأفكار والاتجاهات التالية ليسعى الداعية لفهمها وتحقيقها في ثقافته:

١- أصول العمل المؤسسي والمجتمعي وقواعده العلمية، وتشمل: التنظيم، واللوائح، والهيكل الإداري والتنظيمي، والعضوية، واختيار

القادة والشروط والكفاءات والصلاحية وتفويض السلطة، والحقوق والواجبات والسياسات والأعمال والاتصال، والمعايير والقياس والتقييم.

٢- الإدارة والتخطيط والسياسة العامة.

أ- فهم الأهداف الاستراتيجية والمثالية والعملية المفترضة للأمة والدعوة الإسلامية.

ب- إعداد الخطط والموازنات وقياس الأداء وتقييمه.

جـ- إدخال الموارد الفنية والمالية.

د- توزيع المسؤوليات والأدوار.

هـ- المتابعة والتوجيه والرقابة.

٣- تاريخ الدعوة الإسلامية وأعلامها.

٤- الإطار الفقهي والواقعي الذي يحكم العمل ويحدد إمكاناته وحدوده.

٥- آفاق العمل الإسلامي ومبادؤه في المجال الحضاري، والاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، والاستثمار والتنمية، وخدمة المجتمع، والعمل العام.

٦- المراحل والأولويات والأحوال والقدرات.

٧- تاريخ العرب والمسلمين وتاريخ الأمم والدول.

٨- الجغرافيا السياسية والتاريخية وهيكل الأمة الإسلامية السياسي والاجتماعي والسكاني.

٩- قضايا الأمة العربية والإسلامية وهمومها الكبرى.

١٠- الاقتصاد الإسلامي.

obeikandl.com

١١- الدستور والتشريعات في الدول العربية والإسلامية.

١٢- الخدمات والمرافق والمؤسسات المختلفة في الدول العربية والإسلامية.

١٣- المواقف الأولى والعلاقات الدولية للدول الإسلامية.

١٤- جغرافيا الوطن الإسلامي: الحدود، السلطة، الموارد.

١٥- وسائل تنمية المجتمعات المحلية.

يقوم التثقيف الذاتي على محاور أربعة، هي:

١- Exhaustive القراءة المنهجية المنظمة، والعمل المتواصل في البحث والاطلاع، وهو الجزء الصعب المملّ، ويشمل الاطلاع على المصادر والجوانب الأولى، ودراسة الكتب والبحوث العلمية الأساسية التي تخدم الأغراض السابقة الخمسة عشر، وأيسر سبيل إليها الاطلاع على دراسات وكتب شاملة منهجية (Text books).

٢- Everyday : المصادر والخبرات المتأتية من الحياة اليومية، مثل اللقاءات وأنشطة الحياة المختلفة في الفهم والثقافة، والمشاهدات والاستماع والملاحظة، أو هي الوسائل غير المقصودة وغير المباشرة.

٣- Current: المتابعة الجارية والمستمرة بالاطلاع على دورية أو أكثر مختصة، إضافة إلى الكتب والدراسات التي تصدر أولاً بأول، ومعرفة الإصدرات والكتب الجديدة، وزيارة المكتبات التجارية والعامة بانتظام.

٤- Browsing: الثقافة الآتية من مطالعة الصحف والاستماع والقراءة غير المنهجية.

وتتحقق الثقافة الفاعلة بحسن اتباع هذه العناصر الأربعة وتراكم الأفكار والمعلومات والتجارب والمعطيات، ثم فهمها وإدخالها في العمل والتصويب والإرشاد والدعوة والإصلاح.

ولم يعرض المقال للعلم الشرعي وتحصيله مع ضرورته وأهميته، ولكن تقديرًا أنه لا يحتاج إلى تأكيد، وثمة من هو أعرف من الكاتب وأقدر على تقديمه وعرضه من الكاتب.

كيف؟

لا ننتظر أن يحقق الداعية هذه الثقافة المطلوبة ويفهم هذه العناصر مرة واحدة أو في مدة وجيزة من الزمن، لكنها سنوات من العمل الدؤوب والجهد المتراكم، ولا بد من الإدراك أولاً أن الثقافة ليست مسلاة بل جهد شاق مضنٍ وعمل قاسٍ مملّ لا مفرَّ منه.

والكتب السهلة والقصص الممتعة والتلخيص والتكرار لا ينفع الثقافة إلا كما تفعل "التوابل" في الغذاء، ومن يعتمد عليها في القراءة والاطلاع لا يختلف عمن يعتمد أساساً على "الشوكولا" أو "الفوشار" أو "البوظة" غذاءً ويطعمها ابنه!.

ومن خطوات الثقافة المطلوبة هنا:

- فهم مناهج البحث العلمي والمراجع ومصادر المعلومات.

- العضوية في مكتبة عامة.

- متابعة صحيفة يومية واحدة على الأقل بشكل يتجاوز الاطلاع على الأخبار والمانشيتات إلى متابعة تخدم فهم أداء المؤسسات المحلية والمرافق

المختلفة، وتحيط بالجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية للبلد.

- متابعة مجلة مختصة واحدة على الأقل من الدوريات التي تغطي بالبحث والدراسة شؤون الوطن العربي وقضاياه، مثل: السياسة الدولية، المستقبل العربي، شؤون عربية، لوموند ديبلوماتيك (النسخة العربية)، فورن بوليسي (النسخة العربية) وأما الذين أنعم الله عليهم بفهم اللغة الإنجليزية فسيجدون من المصادر -وبخاصة مواقع الإنترنت لمراكز الدراسات والمؤسسات الكبرى والعريقة من الجامعات والمكتبات- موردًا كبيرًا، لو أتيح مثله أومعشاره لأسلافنا من العلماء والدعاة والمصلحين والمجددين لقدموا تراثًا عبقريًا يصلح خريطة طريق لإصلاح العالم ونهضة الأمة، ولم أتحدث هنا عامداً عن الصحف والمجلات والمواقع العامة أو السيارة لأنها -على أهميتها وضرورتها- ليست مصدراً أساسياً للتعلم والتثقيف.

- الاطلاع على التقارير الحكومية السنوية التي تصدر عن المؤسسات الحكومية الهامة في بلد الداعية، مثل: البنك المركزي، دائرة الإحصاءات العامة، وزارة الإعلام، ووزارة الداخلية.

- الاطلاع على التقارير السنوية التي تصدرها مراكز أبحاث مختصة في شؤون الوطن العربي مثل: التقرير الاستراتيجي عن معهد الأهرام، وتقرير الأمم المتحدة عن التنمية البشرية في العالم"، و"تقرير اليونسكو"، "في الثقافة والنشر في الوطن العربي"، "تقرير معهد الدراسات الاستراتيجية في لندن حول الشؤون العسكرية والاستراتيجية في الوطن العربي.

obeikandl.com

العمل الإسلامي:
مرحلة مجتمعية من النخبوية إلى المجتمعية ومن الهرمية إلى الشبكية

بدأ العمل الإسلامي والنهضوي فرديًا ثم تحول إلى مؤسسيّ، والمطلوب اليوم أن يتحول من النخبوي والتنظيمي إلى مجتمعي تؤديه الأمة كلها، فالتحدي هنا أن تقوم المؤسسات والحكومات والجماعات بنقل الخبرات التي لديها إلى المجتمع كله، وأن تشاركها الأمة المسؤوليات والأدوار والأعمال، وهنا تؤدي الشبكية إلى ربط الأعمال وتنسيقها، وسد الثغرات، ودعم الحلقات الضعيفة وتقويتها.

ونشاهد اليوم لدى الأمة الكثير من المظاهر والإنجازات التي تدل على إمكانية نقل الدعوة والإصلاح والهم العام من نخبة إسلامية في أعلى هرم الأمة إلى الأمة كلها، فالمساجد اليوم تمتلئ بالرواد من الناس الذين لا ينسق وجودهم في الصلوات والدروس جماعة ما كما كان الأمر قبل عشرين سنة أو أكثر، حين بدأت الصحوة الإسلامية بالنمو والانتشار، ولكن الإقبال على المساجد حالة مجتمعية عامة، والأمر نفسه ينطبق على رحلات الحج والعمرة والحجاب والأشرطة الكاسيت والإعلام وغيرها من البرامج التي بدأت نخبوية تقوم عليها وتنسقها جماعة إسلامية منظمة وصارت اليوم حالة مجتمعية عامة.

وامتدت الصحوة الإسلامية إلى دول وأقطار ليس فيها وجود لجماعات إسلامية منظمة، كما شملت فئات من المجتمع ليس من بينها في العادة من ينتظمون في الجماعات الإسلامية.

وقامت مؤسسات استثمارية تجارية لا علاقة لها بحكومة أو جماعة مستمدة أساسًا من إقبال الناس ورغبتهم بتطبيق الشريعة الإسلامية، مثل البنوك الإسلامية التي تزيد موجوداتها على المئة والخمسين مليار دولار، وشركات التأمين الإسلامية.

ويقابل هذه الحالة صورة أخرى مردها إلى عدم رعاية الصحوة الإسلامية وترشيدها واستثمارها على نحو إيجابي، ونعني التطرف والتدين المنقوص المشوه والإرهاب المنسوب إلى الإسلام، ولا نقلل من شأن هذه المشكلات، ولكننا نعتقد أنه يمكن تحويل هؤلاء المتدينين إلى أعمدة في الإنتاج والإصلاح والاستقرار بدلاً من استدراجهم ليكونوا أعداء لبلادهم، ومصدر إعاقة للنهوض والتنمية.

فأبناء الصحوة الإسلامية والمتدينون أغلبهم من المتعلمين والمثقفين الذين تخرجوا من الجامعات في بلادهم وفي الدول الغربية المتقدمة، هم يرون في الدعوة الإسلامية مصدر حراك للمجتمع يصلحه وينميه، ويمتلكون رؤى برامج في الإصلاح يتحمسون لها، فالتدين يعطي الدافع والحماس لمشروعات حياتية وتنموية تقلل كثيرًا من تكاليفها وتجعلها منسجمة مع ضمائرهم وتطلعاتهم.

إن الحكومات والمؤسسات يمكن أن تجد في الدعوة الإسلامية موردًا

كبيرًا لو استثمر استثمارًا صحيحًا، فإنه سيخفض كثيرًا من النفقات والجهود المبذولة مع فاعلية ونجاح أكبر في تحقيق الأهداف، وبخاصة في مكافحة الجريمة والإدمان والتفكك الأسري، وبرامج العمل التطوعي، والتعليم المستمر، وتأهيل الأسر والمجتمعات المحلية وبرامج البلديات والنقابات، وغير ذلك كثير مما يمكن تفعيله، والحصول على أفضل النتائج بأقل التكاليف.

ويقدم تقرير "الحالة الدينية في مصر" الصادر عن مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية مداخل متقدمة و مهمة لفهم حراك المجتمع العربي وتفاعلاته، وبخاصة أن مصر تمثل قلب الوطن العربي وبارومتر حياته العامة والسياسية.

لقد أصبح موضوع العلاقة بين الدين والحياة العامة أهم الموضوعات التي شغلت بها دراسات العلوم السياسية في الجامعات ومراكز البحوث والدراسات والمؤتمرات والندوات فضلاً عن الصحافة والإعلام، وقد كانت معظم الصراعات والحروب في السنوات العشر الأخيرة يشغل الدين موقع القلب فيها، وكانت الدراسة الشهيرة لـ "صمويل هنتنغتون" عن صراع الحضارات التي نشرت في مجلة الشؤون الخارجية الأميركية قد أثارت جدالاً واسعًا لم يتوقف حتى اليوم.

إن النظرة العلمية إلى الحالة الدينية يجب ألا تستغرقها ظاهرة الأصولية الإسلامية، فقد تنامت أيضًا الأصولية المسيحية واليهودية وربما الأصوليات الأخرى، كما بدا واضحًا في الانتخابات الهندية حيث

نجحت الأصولية الهندوسية أكثر من أية فترة سابقة، وحتى الأصولية الشاملة لا تمثل إلا جزءًا قليلاً من الظاهرة الدينية، إذ إن المؤسسات الدينية التقليدية كوزارات الأوقاف والأزهر في مصر والكنائس تؤدي دورًا متناميًا في الحياة العامة.

والعودة إلى الدين تحولت إلى ظاهرة اجتماعية، قد تكون مسألة الفنانات المتحجبات واحدة من تجلياتها الإعلامية التي امتلكت دويًا إعلاميًا ولكنها تتعدى ذلك إلى أوساط اجتماعية عديدة، ويلاحظ في مدينة عمان كيف تنتشر مساجد في أحياء مقتصرة على الأغنياء، تمتلئ بالمصلين في جميع الأوقات، ولعل من أطرف المشاهد في هذه المساجد هو مجيء نساء غير محجبات للصلاة في هذه المساجد، وربما يكون هذا الاتجاه يحمل بعدًا نفسيًا وسلوكيًا للبحث عن الشخصية والهوية وعن توازنات نفسية وثقافية جديرة بالبحث والتفكير.

ولكن من أهم ما يجب الالتفات إليه في فهم الظاهرة الإسلامية بشكل خاص والدينية بشكل عام هي التحول المجتمعي الذي يجري في العالم العربي والإسلامي، وكيف انتقل الهم النهضوي والإصلاحي من عمل فردي بدأ في القرن التاسع عشر أو ما قبله بقليل، أو في بدايات القرن العشرين، ثم تبلورت المشروعات الدعوية والإصلاحية في حركات وجماعات إسلامية كجماعة الإخوان المسلمين، والجماعة الإسلامية في دول القارة الهندية، وحزب الرفاه في تركيا والجماعات السلفية والصوفية.

وما يحدث اليوم هو تحول في التدين والعمل الإسلامي من كونه عمل جماعات وحركات إلى عمل مؤسسي ومجتمعي تؤديه الأمة بأسرها، وقد يضلل أفهامنا ويستدرجنا إلى مواقع غير صحيحة ذلك التناول الإعلامي الذي يتعامل مع الظاهرة الإسلامية باعتبارها فقط عملاً حركيًّا منظمًا تنسقه جماعات إسلامية بعضها معتدل وأخرى متطرفة دون ملاحظة تذكر لدور المجتمع أو المؤسسات الرسمية والأهلية.

ويمكن التقاط مجموعة من التعاملات المؤسسية والاستثمارية مع الظاهرة الإسلامية بعيدًا عن عمل الجماعات والحركات الإسلامية، مثل البنوك الإسلامية، وقد أنشأ مؤخراً البنك العربي أكبر وأهم البنوك العربية بنكاً إسلامياً "البنك العربي الإسلامي الدولي" وشركات التأمين الإسلامية، وشركات الحج والعمرة، والمحلات التجارية المرتبطة بالسلوك الإسلامي كالحجاب والكاسيت، والأمر يتعدى الملاحظات السابقة بكثير إذا أعدنا النظر والتفكير في دور وزارات الأوقاف والمساجد والجامعات والمدارس ومحطات الإذاعة والتلفزيون والإنتاج السينمائي والتلفزيوني؛ فسنجد أن جهودًا كبيرة تبذل للدعوة الإسلامية وينفق عليها مئات الملايين، وهي أعمال ستؤدي مراجعتها وإصلاحها إلى حالة حضارية متقدمة.

ويسجل مركز الدراسات السياسية ملاحظات واستنتاجات مهمة متعلقة بدراسة الظاهرة الإسلامية، منها أن الدراسات الأكاديمية والصحفية كانت معنية أكثر شيء بسياسات الحركة الإسلامية تجاه الدولة أو دراستها كحركة اجتماعية، وركزت هذه المعالجات على ظواهر

العنف السياسي دون غيرها، ويمكن القول -مع قدر من التحوط-: إن الدراسات في هذا الحقل ما تزال تقع في دائرة العلوم السياسية، ولم توظف مناهج علم الاجتماع أو التحليل الثقافي.

ومن هنا فإن الظاهرة الإسلامية تفتقر إلى المعلومات الدقيقة الشاملة، ولا تتلاءم دراساتها مع طبيعة الظاهرة ولا مع فهم المجتمع، وتحكمها صورة نمطية يغلب عليها السجال والهجاء والشغل بما يسمى "الإسلام السياسي"، وتعاني من العمومية والتكرار ولا تستند إلى ممارسة تحليلية عميقة.

حالة الانبعاث الديني لا تقتصر على العالم الإسلامي، فالعالم كله يشهد بعثًا دينيًا يؤثر على الحياة العامة والثقافة، ويعيد تشكيل الدول والمجتمعات، فإلى جانب العالم الإسلامي حيث تمثل الحركة والاتجاهات الإسلامية القوة الشعبية الفاعلة والغالبة، تقوم في أوروبا صراعات دينية قومية مثل الكروات والصرب، الصرب والبوسنة، الصرب والألبان، والكاثوليك والبروتستانت في إيرلندا، وتحتل الأصولية المسيحية في الولايات المتحدة مكانة مؤثرة في الحياة السياسية والعامة، وينسب إليها نجاح الرئيس الأمريكي بوش وبرامجه ومواقفه، وتمتلك شبكة واسعة من الكنائس والجامعات ومحطات التلفزة والشركات والجمعيات، وفي الهند تغلبت الأصولية الهندوسية على حزب المؤتمر العريق الذي ظل يحكم الهند منذ تأسيسها، وفي أمريكا اللاتينية قام دعاة التحرر من رجال الدين الكاثوليكي بمحاولات للإصلاح الاجتماعي والسياسي، مثل: مؤتمر (مدبللين) للأساقفة

الكاثوليك عام ١٩٦٨، ومؤتمر (يوبليا) عام ١٩٧٩ . وكانت الكنيسة في أوروبا الشرقية أهم خصم سياسي للشيوعية ولعبت دورًا مهمًّا في إسقاطها، وفي سيريلانكا يدور صراع بين البوذيين "السنهال" والهندوس "التاميل"، والصراع بين المسلمين والهندوس في الهند لم يتوقف، وفي الصين أخذت انتفاضة المسلمين بُعدًا جديدًا، حيث تقوم الحكومة الصينية بإعدام العشرات منهم بعد أكثر من نصف قرن من التعايش المعقول نسبيًّا، وهي أحداث تمثل نموذجًا وليست شاملة، وتدل على القوة الكامنة للدين، كما تكشف ضعف العديد من الأمم والدول.

إن الدولة ظاهرة حديثة جداً، ولم تكن الدول السيادية في مطلع القرن العشرين تتجاوز العشرين دولة، لكنها اليوم حوالي مئتي دولة، أي أنها تضاعفت خلال مئة سنة عشرة أضعاف، وهي اليوم تواجه تحدياً حقيقياً يهدد مصيرها واستمرار سيادتها وطبيعتها ووظائفها، وتقدم الحركات الدينية في معظم أنحاء العالم شعوراً جديداً بالهوية والانتماء وتجمع مساعي الشعوب نحو الإصلاح وحياة أفضل، بعدما فشلت معظم الدول والحكومات في تحقيق الرفاه لمواطنيها.

وقد أضافت العولمة وتقنيات الاتصال فرصاً وتحديات جديدة، حيث بدأت الدول تتخلى بسرعة عن كثير من وظائفها وسيادتها لصالح الشركات والمجتمع الأهلي أو للقوى والمنظمات الخارجية كالأمم المتحدة، وحلف الأطلسي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية أو للشركات العالمية الكبرى التي تحولت بسرعة فائقة إلى دول

وإمبراطوريات عملاقة.

يرى "جون اسبوزيتو" الأستاذ بجامعة جورجتاون أن مشروعات ووعود النخب السياسية بالتنمية وحياة أفضل لم تتحقق، وارتبط هذا الفشل بالعلمانية، وكان المشهد الذي آلت إليه الدول والمجتمعات يدعو إلى ردود فعل عكسية وغاضبة وبحث عن وسائل وأطر أخرى للإصلاح غير تلك التي سادت طوال هذا القرن، حيث تكونت مجتمعات تستفيد فيها أقلية ضئيلة عدداً من كل مزايا الحضارة الحديثة، وترزح الأغلبية في بؤس وفقر، وكان هذا الغنى الفاحش والفقر المدقع على درجة من التجاور والاحتكاك، تؤدي إلى المواجهة المستمرة.

ويقدم ممثلو الحركات الدينية أنفسهم على أنهم سيحققون مجتمعاً أكثر أصالة وعدالة اجتماعية، ويدافعون عن الفقراء والمضطهدين، وقد جذبت هذه الحركات مهنيين ومثقفين وأساتذة وعلماء تخرجوا من أفضل الجامعات وأهمها في بلادهم وفي أوروبا وأمريكا، كما تستخدم بفاعلية التقنية الحديثة ووسائلها الإعلامية في التأثير والاتصال على نحو يبشر بمهارة قيادية وتقنية تؤهلها لقيادة المجتمعات والدول.

فالمجتمعات تبحث بحرقة عن أصالتها وهويتها، ولا يكفي القول إن الفقر والبطالة والتهميش هي الأسباب الوحيدة المحركة للبعث الديني، وسيظل الدين والثقافة لهما وزنهما في التنمية.

وقد عرضت مجلة اليونسكو في أحد أعدادها صورتين متجاورتين ومعبرتين، في الصورة الأولى ترقص مجموعات من الهنود الحمر

بملابسهم التقليدية، وفي الصورة الثانية يقف آلاف الروس في طابور طويل ينتظرون فرصة الدخول إلى مطعم مكدونالدز للوجبات السريعة، والصورتان ضمن حوار مع المفكر الهندي "سميتو كوتاري" أحد اثنين أسسا مركز (لوكايان) لتعزيز التبادل بين المثقفين في الهند والعالم، حيث يعرض كوتاري في ذلك الحوار أنماطًا وأمثلة مما يجري في العالم من سلب ممتلكات الآخرين المادية والمعنوية دون مراعاة واعتبار للعلاقة بين الدين والثقافة وبين التنمية، فقد أدى استخراج الموارد الطبيعية إلى تهميش الملايين في تلك المناطق وضياع هويتهم الثقافية.

وفي الهند تمتلك ٤٢ عائلة أكثر مما يمتلكه ١٥٠ مليون مواطن هندي، والشاهد في الأمثلة ليس فقط في الفجوة المتسعة بين الفقراء والأغنياء، ولكن في انقراض أفكار وثقافات كانت تحقق للناس قدرًا كبيراً من احتياجاتهم كالزراعة والبناء وفق النظام التعاوني، فيستطيع الناس أن يحصلوا على بيوتهم وأقواتهم بمجهودهم دون نفقات مالية، والتدمير الذي حدث ليس فقط في النظام الاقتصادي، ولكن الثقافة المصاحبة لهذا النظام تعرضت للانهيار.

إن الحكومات والمؤسسات الأهلية تمتلك في الدين موردًا كبيرًا، لو استثمر بشكل صحيح فإنه سيخفض جزءًا كبيرًا من أعباء الناس الاقتصادية والاجتماعية، وتستطيع الحكومات -لو أرادت- أن تحول المتدينين من أعداء لمجتمعهم وبلادهم إلى أعمدة مهمة في الاستقرار والإنتاج.

obeikandl.com

المجتمع الذي يتعلم

ستكون منظومة التعليم أكثر المجالات عرضة لإعادة الصياغة والترتيب في مرحلة المعلوماتية، وبدأت بالفعل مؤسسات التعليم ومضامينه ومجالاته ووسائله تأخذ صيغًا جديدة مختلفة إلى حد كبير عن الأنظمة التي ألفها الناس.

إن التغيير الكبير الذي يجري في الموارد والتقنية والمعارف يجعل ما يتعلمه الإنسان ويتدرب عليه عديم النفع -أو قليل النفع- بعد فترة وجيزة؛ فالمهندس أو الطبيب أو المدير وغيرهم يواجهون تحديات كبيرة في عملهم، تجعلهم بدون التعليم المستمر والمتابعة الدؤوبة لتخصصاتهم ومجالاتهم يخرجون من دائرة عملهم وتخصصهم.

فالتعليم المستمر "مدى الحياة" أصبح مطلبًا ضروريًّا يجب أن تلتفت إليه الدول والمؤسسات، ولم يعد التعليم الإلزامي في المدارس كافيًا لتأهيل المجتمعات وتنميتها.

ويعد التدريب اليوم من أكثر القطاعات نموًّا وانتشارًا، ولكن الدورات التدريبية وما تقوم به المؤسسات المختلفة في هذا المجال لم يعد كافيًا لتلبية الاحتياجات الكثيرة الناشئة للعمل والحياة، فالتعليم المستمر والتدريب أصبح على درجة من الإلحاح والأهمية تستدعي أن تقوم به مدارس وجامعات ووزارات ومؤسسات منتشرة في المدن والقرى؛ لأنه لم

يعد يستهدف قطاعًا نخبويًا من الناس، وإنما يحتاجه الناس جميعهم بمختلف أعمارهم وأعمالهم ومستواهم التعليمي والإداري.

الإنترنت بتحولها إلى جزء من بيوت الناس وحياتهم وعلاقتها بكل الأنشطة والمؤسسات؛ تعيد ترتيب كثير من أنظمة الإدارة والعمل، ومنها التعليم..

باتجاه الحكومات والدول لتخفيف الإنفاق، وبسبب التحديات التعليمية الناشئة التي تستدعي إنفاقاً وإعداداً، فسيكون بمقدور المجتمعات والدول باستخدام الإنترنت أن تفعّل "التعليم المنزلي"، وتجعله رسميًا ومعتمدًا، وتخفيف الحاجة للمباني التعليمية، وتقليل عدد المتعلمين، وتغيير أنظمة الامتحانات، وأن يشمل التعليم جميع مراحل العمر، تستقبل المدارس والمؤسسات التعليمية كل الناس وليس فقط الأطفال والتلاميذ.

وأهمية التعليم للمجتمعات والدول في تحقيق تنمية اقتصادية وعلمية وثقافية..، ويتوقع منه في ضوء المتغيرات المتسارعة أن يعيد تشكيل وبناء قوة عمل مؤهلة، وتتكيف مع التقنيات الجديدة المنتشرة، وتشارك فيها أيضًا. وإذا كانت مخرجات التعليم مختلفة عن الوجهة الجديدة للعمل والموارد والاقتصاد؛ فإن التعليم يكون عبئًا زائدًا على الأعباء الكثيرة المتراكمة على الأفراد والمجتمعات.

وقد يحدث دون انتباه أن تنحرف مؤسسات التعليم برغم الإنفاق الهائل عليها والتفرغ التام لها من قبل أكثر من ثلث المجتمعات عن

أهدافها البسيطة التي أنشئت من أجلها، وهي أن نتعلم: كيف نعرف؟، وكيف نعمل؟، وكيف نكون؟، وكيف نعيش معًا؟.

كانت المجتمعات تعلِّم أبناءها بتلقائية ودون تكاليف تذكر كيف يكونون صالحين ومفيدين لأنفسهم ومجتمعاتهم، فالبيئة المحيطة بالطفل كانت تمده بالثقافة والهوية والعادات والتقاليد ووسائل العمل والرزق، فيتعلم حرفة أو مهنة، ويتعلم كيف يبني بيته بنفسه، ويحقق جميع أو معظم احتياجاته بنفسه أو ضمن منظومة المجتمع المحيط به، ورغم أن المؤسسات التعليمية قد أنشئت لتطوير هذه المهارات وتفعيلها؛ فإنها في المحصلة قضت على معظمها، وربما جميعها؛ فالشاب يتخرج من المدرسة أو الجامعة ﴿**وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ**﴾ (النحل: ٧٦). وحتى في التطبيقات التي تبدو مقبولة للناس، مثل كثير من الوظائف والأعمال التي في الحكومات والمؤسسات، أو فلسفة الحصول على المال لتوفير الاحتياجات الأساسية بدلاً من تحقيقها بالجهد الذاتي وتعلم صناعتها تلقائياً لجميع الناس، مثل البناء، والتغذية، وبعض اللباس، والمهارات الأساسية في البيت كالصيانة، والديكور..؛ فإنها (تطبيقات العمل والتعليم الحالية) تمثل استنزافاً وتدميراً وبطالة وابتعاداً عن الإنتاج الحقيقي.

"المجتمع الذي يتعلم" فكرة تبنتها اليونسكو عام ١٩٧٦، لكنها لم تعد اليوم ترفًا أو تطوعًا وإنما أكثر ضرورة من التعليم الابتدائي، فالتعليم ليس نظامًا فرعيًّا في المجتمع، ولم يعد يمكن تقسيم الحياة إلى فترة

تعليم وفترة عيش وعمل. ولم يعد التعليم مقصوراً على المدارس والجامعات، وإنما يمكن أن تقوم به جميع المؤسسات الخدماتية والاقتصادية والاجتماعية والمعلوماتية. وتتيح شبكات الاتصال والإعلام إمكانية التعليم والتأهيل بسهولة وتكلفة قليلة (نسبيًا).

وربما تكون المشكلة الأساسية في التعليم المستقبلي هي القدرة على تحديد الاحتياجات والمهارات الناشئة التي يجب أن تتزود بها المجتمعات. إذ يبدو أن معظم الأفراد والمؤسسات غير مدركين لهذه الاحتياجات ولا يلاحظون الإمكانات والفرص التي تتيحها المعلوماتية والشبكية المهيمنة بتسارع وهدوء على كل مناحي الحياة والاقتصاد.

والمهن التعليمية أصبحت أيضاً موضع إعادة نظر، والمعلم الذي لا يقدم أفضل مما أو غير ما تقدمه برامج الكمبيوتر وأقراص المعلومات CD Rum وشبكات المعلومات والاتصال؛ سيتحول إلى ديناصور...

والواقع أن كثيراً من المهن والمؤسسات متجهة إلى الانقراض أو التغيير الجذري، فكما أبدلت "الثورة الصناعية" معظم مهن ووسائل الحياة السابقة لها؛ فإن المعلوماتية تغير كل - أو معظم- الوسائل الحالية، ومعها أيضاً مهن ومؤسسات وأنظمة اقتصادية وتعليمية واجتماعية.

ولم يعد الحديث عن هذه التغييرات المتسارعة ترفًا فكريًا، أو خيالاً علميًا، ولكنها تحديات نشأت بالفعل، وقد يكون قد فات جزء كبير من الوقت والجهد والتفكير للتعامل معها، وهي -للأسف الشديد- لا تنتظرنا حتى ندركها أو نقتنع بضرورة التعامل معها.

تحولات السلطة والموارد

يُكمل كتاب «Power shiftPower shift» الذي تُرجم إلى العربية بعنوان "تحول السلطة" ثلاثية (ألفن توفلر) التي بدأت بكتاب "صدمة المستقبل" والذي صدر في السبعينيات ، ثم كتاب "الموجة الثالثة" في الثمانينيات، وقد لقيت هذه الكتب رواجًا واهتمامًا كبيرين، وهي ظاهرة تؤكد جدية الموضوع، فأن يباع عشرة ملايين نسخة من كتاب ليس روائيًا ولا جنسيًا ولا سياسيًا؛ فذلك يشير إلى أهمية الموضوع الذي يتناوله توفلر، ومدى شغل الناس به.

كان كتاب "تحول السلطة" تتويجًا لجهد استغرق خمسة وعشرين عامًا حاول فيها توفلر استكشاف التغيرات التي يعلن عنها القرن الحادي والعشرون، وفي كتاب "صدمة المستقبل" عرض للتغيرات التي تحدث، وطرق تأثيرها على البشر والمنظمات، وفي كتاب" الموجة الثالثة" يعرض اتجاهات هذه التغيرات وأبعادها، فالسرعة المتزايدة للأحداث وتسارع ردود الأفعال تؤدي إلى تأثيرات تنحني لها الأمم والدول، وتحتاج معها إلى معرفة صحيحة بالتكيف والاستجابة لهذه المتغيرات.

وتعبر فكرة الموجة الثالثة عن مرحلة جديدة رئيسة تمر بها البشرية بعد الموجة الأولى، وهي الثورة الزراعية التي بدأ معها الإنسان التحول من الصيد والرعي إلى الاستقرار، ثم إقامة الحضارات والمجتمعات

والعلاقات المختلفة، وكانت الموجة الثانية مع الثورة الصناعية في القرن السابع عشر الميلادي التي صحبتها تحولات سياسية واقتصادية وحضارية غيرت العالم كله، واليوم تبدو موجة ثالثة تتشكل معتمدة على تقنيات المعلومات والاتصالات.

ذهل العالم في نهاية الثمانينيات، بسبب انهيار أعظم إمبراطورية وأشدها قوة عسكرية وهي الاتحاد السوفيتي، والمنظومة الشيوعية في أوروبا الشرقية، غير أن هذا الحادث لم يكن وحده مما تشكل من ظواهر وأحداث في السنوات الأخيرة تنبئ عن مراجعات شاملة، وتحولات جذرية تجري في العالم والحضارات والمجتمعات.

فحتى سنوات قليلة مضت كانت شركة (جنرال الكتريك) إمبراطورية مالية وحتى سياسية، وهي اليوم تصارع لأجل البقاء، وصارت شركة (مايكروسوفت) التي بدأت عملها قبل سنوات قليلة تصوغ حياة الناس وحتى أحلامهم، ويملك اليوم "بيل غيش" مدير مايكروسوفت أكثر من سبعين مليار دولار، ومن بين أغنى خمسين شخصية في العالم يشتغل أكثر من ربعهم بالمعلومات التي لم تكن حتى فترة قريبة سوقاً يعتد به، واختفى أباطرة ماليون وبليونيرات عرفهم العالم.

وفي خلفيات ملاعب المونديال لاحظ جمهور كرة القدم إعلانات لشركات ترعى هذه المباريات لم يسمع بها من قبل من تلك التي تعمل بالمعلومات والاتصالات إلى جانب الشركات التي ملأت الأفق، وقد لا يعلم الكثير أن هذه الشركات شبه المجهولة تبلغ قيمة العقد الواحد من

عقودها مليارات الدولارات، ومحطات التلفزيون المشهورة والتقليدية التي كانت محدودة العدد وتحتكر الجمهور تبدو اليوم وكأنها تعمل في غابة من المحطات والقنوات الكثيرة جداً، بحيث أصبحت فرصة المشاهد في الانتقال والانتقاء من بينها أسهل بكثير من اختيار المجلات والصحف، ويتدفق عبر الإنترنت من الأموال والرسائل والمعلومات والعقود والندوات ما يجعل سلطة الدول ورقابتها المالية والفنية شكلاً من الماضي العتيق.

ثمة تحولات كبيرة وجذرية في السلطة والموارد يجب الالتفات إليها وملاحظتها قبل فوات الأوان، فسلطة المعرفة والمعلومات بدأت تحتل مكانة متفوقة على سلطة المال والسلاح، والقوة العسكرية التي كانت أساساً مستمدة من السلاح والهيمنة؛ أصبحت تعتمد تماماً على تقنية المعلومات، ولم تعد الطائرات والصواريخ والغواصات بدون أجهزة الكمبيوتر سوى كتل من الحديد لا تفيد شيئاً، بل إنها توصف بأنها أجهزة معرفية تجري مليون استنتاج منطقي في الثانية الواحدة، وأن قوتها مستمدة من قدرتها المعرفية والذهنية.

وأزمة الكمبيوتر عام ٢٠٠٠ التي تحدثت عنها وسائل الإعلام تشير إلى حجم الاعتماد الهائل على الكمبيوتر في العمل والإدارة والحياة، فاقتصاد الدول المتقدمة اليوم لا يستطيع العمل لمدة نصف ساعة بدون أجهزة الكمبيوتر.

ويقول الخبراء: إن تقنيات المعلومات والاتصالات هي الآن في مرحلة

بدائية، وأنها تتطور بسرعة كبيرة بحيث يبدو حديثا اليوم عن آثارها وتحولاتها وصدماتها وتداعياتها ساذجًا بدائيًّا أيضًا؛ لأنها ستكون بعد عقود من الزمن على درجة من التقدم والتداخل في حياة الناس يصعب تصورها أو تخيل إمكانية تطبيقها، ولكن يمكن اليوم ملاحظة كيف أن المعرفة والمعلومات تحولت من عامل مساعد للسلطة أو مكسب إضافي إلى أنها جوهر السلطة، ومن ثم فإن الصراع على السلطة سيكون صراعًا على المعرفة، ولهذا السبب فإن قوانين الملكية الفكرية تأخذ اليوم أولوية قصوى في السياسة الدولية، وسيكون التنافس أيضًا هو توزيع المعرفة وإمكانية الوصول إليها، وإذا لم نفهم كيف تنتشر المعرفة ومن هم الذين يتلقونها؛ فلن نستطيع أن نحمي أنفسنا من استغلال السلطة ولا إقامة المجتمع الذي نريد، وستكون السيطرة على المعرفة هي العنصر الحاسم في الصراع العالمي والمحلي.

الاقتصاد الجديد يزدهر في ظل قدر أكبر من حرية التعبير وتغذية راجعة أفضل بين الحكام والمحكومين، ومشاركة شعبية أوسع في صنع القرارات.. قد يفرز ذلك حكومات أقل بيروقراطية وأكثر لامركزية ومرونة، كما قد يؤدي إلى قدر أكبر من الاستقلال الذاتي للفرد، ويؤدي إلى تحول السلطة بعيدًا عن الدولة ليس بهدف تعجيزها ولكن من أجل إضفاء صبغة إنسانية عليها.

ويربط "توفلر" بين البعث الديني المنتشر في العالم كله وبين أتباع جميع الأديان وبين الكمبيوتر، وقد بدأت هذه التحولات بجماعات

الهيبيز التي شنت هجمات ساخطة على القواعد الثقافية للعصر الصناعي بما في ذلك علمانيته، كما زادت في الغرب موجات التصوف والحكمة وديانات غريبة غير معروفة، وبالطبع فإن العلمانية التي ارتبطت بالمرحلة الصناعية ستتعرض للانهيار مع أفول نجم المرحلة الصناعية، وبدء مرحلة جديدة لتحل محلها ثقافات جديدة، وتتلاقى جميع الموجات الدينية على العداء للعلمانية ورفضها.

ورافق أيضًا الموجة الثالثة موجة المعلوماتية تنامي العمل البيئي، مثل جماعات الخضر وحماية البيئة، والعودة إلى الحياة التقليدية في اللباس والزراعة والطعام لأجل حماية البيئة والموارد والحد من التلوث، أو ما يمكن تسميته «أصولية بيئية» والتي يأخذ بعضها أبعادًا متطرفة تجاه كل منتجات الحضارة الحديثة، ويمكن أن نلاحظ في الوسط العربي ذلك الإقبال الكبير الذي تشهده برامج «مريم نور»، والتداوي بالأعشاب الذي بدأت تتبناه جامعات ومؤسسات أكاديمية وشركات كبرى لتصنيع الأدوية.

وكانت الظاهرة الثالثة الجدية: هي تنامي موجة القوميات والتعصب الوطني وتفشي كراهية الأجانب، وقد استطاع حزب الحرية النازي في النمسا أن يحصد أكبر حصة في الانتخابات النيابية، وتعد الحركات اليمينية المتطرفة والمعادية للأجانب أكبر منافس على الحكم اليوم في بلدان أوروبا وأمريكا.

وبالطبع فإن هذه الموجات والظواهر مرشحة للتنامي والتطور في

صيغ مختلفة، فهي مازالت في بداية مسارها وستكون أنظمة الحكم والسياسة من أول ضحايا هذا التطور والتغير. فإلى أين تتجه الديمقراطيات الغربية العريقة، وقد رأينا -على سبيل المثال- كيف شُرِّعت قوانين في الولايات المتحدة تبيح الاعتقال بدون أدلة علنية وبدون محاكمة، وهو أمر كانت الدعوة إليه أو مجرد الحديث عنه في الغرب يعد جنونًا لا يمكن الإصغاء إليه؟!

ومن أهم تجليات هذه التحولات وتطبيقاتها هو التقدم الياباني المذهل والقائم على المعرفة ، وكيف استطاعت أوروبا بعد أن كانت في المؤخرة وتحتضر اقتصاديًّا وتقنيًّا أن تلتقط هذه التحولات فتبني وحدة أوروبية قائمة على العمل الاقتصادي والسياسي والعسكري، وكان واضحًا كيف بدأت تستقل أوروبا عن الولايات المتحدة؛ بل وتتحداها في اتجاه يبشر بقطبية جديدة قد يكون طرفاها أوروبا والولايات المتحدة، وكانت أوروبا إلى عهد قريب كيانًا تابعًا للولايات المتحدة ومتطفلاً عليه.

إن نتائج وتأثيرات ظاهرة المعلوماتية والعولمة والاتصالات مازالت في بدايتها وتدهشنا وتفاجئنا كل يوم بأحداث وتحولات جديدة وغير متوقعة ، ولكنها صحيحة ومؤثرة وتعيد النظر في كل ما استقرت عليه الدول والمجتمعات والأفراد والقوى الإقليمية والعالمية من تقاليد وأدوات عمل وتنافس وضغط.

ثمانون عامًا بحثًا عن مخرج

استشهد صلاح حسن قبل أن يتم روايته الرائعة "ثمانون عامًا بحثًا عن مخرج" وقد نشرت الرواية وهي غير مكتملة، وجاءت على غير قصد مفتوحة لكل النهايات المقترحة، والرواية على لسان الحيوانات في غالبها ، وإن كان ثلاثة فتيان يؤدون فيها دورًا رئيسًا ، أو تظهر فيها تجمعات ومجتمعات بشرية تؤدي دورًا في النسيج البنائي، والقصة وإن كانت رمزية لكنها تشير بوضوح وصراحة إلى الصراع مع اليهود ومحاولاتهم بشتى الوسائل للسيطرة على العالم وإقامة دولتهم.

وصلاح حسن نموذج فريد لا يعرف عنه معظم العرب والفلسطينيين، فهو مجاهد مثل عز الدين القسام، وهذا الرجل البطل شارك مع المتطوعين في حرب ١٩٤٨، وبعد عودته من الحرب شارك في القتال وتدريب الشباب الفدائيين في قناة السويس حتى عام ١٩٥٤ ، ثم خرج إلى السودان وعمل في مشروعات تعليمية وتنموية، وشارك في القتال مع حركات التحرر في أفريقيا، ثم سافر إلى الكويت وأقام عملاً تجاريًا ناجحًا، ولكن عندما استؤنف العمل الفدائي في الأردن عام ١٩٦٧ ترك تجارته في الكويت وكان عمره خمسة وأربعين عامًا، وانتقل إلى الأردن وأسس قواعد للفدائيين كان يشرف على التدريب فيها والقتال حتى استشهد عام ١٩٧٠ في غور

الأردن في عملية جريئة، جرى فيها اشتباك قوي جدًا بين الفدائيين؛ وفصيل من الجيش الإسرائيلي واستشهد في تلك المعركة مع صلاح حسن: زهير سعدو من سوريا، ومحمود البرقاوي من فلسطين، وقُتل من اليهود ثلاثة عشر جندًا على الأقل.

نعود للرواية يخرج هشام وعامر والأمين في رحلة يستطلعون بيتًا قديمًا مهجورًا ولكنهم بعد دخولهم البيت يستدرجهم النمل إلى أمكنة وسراديب وممرات ويجدون أنفسهم محتجزين، وتقتادهم حيوانات غريبة إلى قاعة كبيرة منظمة هي قصر الحكم الذي يتربع على عرشه الأفعى، وعن يمينه الخنزير وعن شماله الضبع، ويُقدَّم الفتيان الثلاثة للمحكمة ولكن تدور خلافات بين الحيوانات الكبيرة فيقتل الخنزير والأفعى ويشغر كرسي الحكم، والحيوانات مشغولة بالمعركة يتسلل الفأر إلى كرسي الحكم ويعلن نفسه حاكمًا وعندما تراه الحيوانات جالسًا على كرسي الحكم تدين له جميعها بالطاعة وتنتهي المعركة.

ينقل الفأر مقر حكمه إلى حجرة سرية داخلية بعيدة عن الحيوانات ويكلف الثعلب بتولي أمر الحيوانات وأن يتلقى منه التوجيهات والأوامر ولا أحد يتذكر الفتيان الثلاثة، ولكن الثعلب يقرر التخلص منهم باستبعادهم من المملكة؛ لأنه يخطط بالاستفراد بالحكم دون علم الفأر، ولا يريد أن يعرف أحد عن ذلك، ويلاحظ أن الفتيان عرفوا خطته وأنهم خطر عليه، فيقذف كل واحد منهم في منحدر سري داخل الجبل، ويجد كل واحد منهم نفسه في عالم جديد لا يعرف عن الآخرين.

عـامـر انتـهى بـه النفق إلـى قـرية أهلهـا واقـعـون في الغش والـكذب ويحـاول أن يصلح مـن أمـر المجـتـمع ويعلم النـاس الصـدق والإخـلاص، والأمين يصل إلـى قـوم مسـالمين مضطهـدين يعتدي عليهم شـعب آخـر، ويفـرض عليهم الضـرائب ويسـوق رجـالهم للخدمـة، ونسـاءهم للمتـعـة؛ فيعلمهم حيل القتال ويحصن المدينة ويتصدى للمعتدين، وهشام يتعقد مساره ولعله يمثل المسار الرئيس؛ فقد وصل إلى نهر وتحول إلى تمساح وتعرف على القرد وحاول التعاون معه، ولكن القرد يحاول قتله ويسلبه المجوهرات التي كان يستخرجها من قاع النهر، وهي عقوبة فرضتها عليه التماسيح قبل أن يعود إنسانًا، ويشعر القرد بخطورة هشام عليه وعلى مكائده، وبعد أن يفشل في قتله وتكشف أمره التماسيح يهرب إلى الفيلة ويؤلبها على التماسيح وتحدث فتنة تكاد تقضي على الفيلة والتماسيح، ثم يشرك القرد في المعركة الأبقار والطيور، ويستدعي القردة من كل مكان ويجمعها، ويحبط هشام خطط القرد مرة ثانية، ويصلح بين تجمعات الحيوانات ويقنع الفيلة أن تسجن القرد وتتشتت القردة في كل أنحاء الغابة.

وتنتهي القصة والمسارات مفتوحة متروكة للقارئ ليتمها بالطريقة التي يراها؛ فقد استشهد المؤلف في أثناء كتابة الرواية -ولم يتمها- أن الصراع بين العرب واليهود يحتاج إلى ثمانين سنة، فإذا كان الصراع بدأ عام ١٩١٧؛ فإن هذا العام هو موعد نبوءة صلاح حسن، ولكن يبدو ذلك أمرًا مستبعدًا، وإذا كان يبدأ بعام ١٩٤٨؛ فإن موعد نبوءته هو بعد ربع

قرن من الزمان وما ذلك على الله ببعيد.

وقد قام الاتحاد السوفييتي عام ١٩١٧ وبذلت أمريكا في حربه الكثير فلم تقدر على إسقاطه، ولكنه انهار بفعل عوامل داخلية ولم تنفعه عشرات الآلاف من الصواريخ والرؤوس النووية ولا الجيوش الجبارة الهائلة ولا الموارد.

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (الحشر: ٢).

حروب الشوارع العربية

أظهرت دراسة أجراها معهد "أندرياس باباندريو" اليوناني الشهير على شبكة الإنترنت وشارك فيها ٢٥ ألف شخص من ١٧٥ دولة أظهرت أن أكثر ما يقلق شعوب العالم هو الفقر وتدهور البيئة.وأوضحت نتائج الدراسة أن الفقر والبطالة ومستوى المعيشة أهم القضايا التي تسيطر على اهتمام العامة (٣٣٪) ومن ثم البيئة (٢٨٪).وجاء الإرهاب في المرتبة الثالثة بنسبة ١٣٪.

وتكشف مطالعة التقارير الوطنية والعالمية والإقليمية حول الوطن العربي والعالم أن الأزمات والتحديات الكبرى لا يتفق معها الاهتمام والإنفاق والجهد الذي يبذل، وأن ما تبذله الدول العربية وغيرها لمكافحة الإرهاب يمكن استثماره في حروب شوارع أخرى تجرى في الوطن العربي تبلغ خسائرها أضعاف خسائر الإرهاب بآلاف المرات.

فقد قتل في الأردن عام ٢٠٠١ بسبب حوادث المرور ٧٨٣ مواطنًا، وجرح حوالي تسعة عشر ألف مواطن، ووقع أكثر من ٥٢ ألف حادث مروري من تدهور وتصادم سيارات مع بعضها أو مع الناس العابرين في الطرق، وفي مصر قتل حوالي عشرة آلاف، وقتل في السعودية حوالي ثلاثة آلاف، وربما كان القتلى العرب بسبب حوادث المرور في عام واحد أكثر من عشرين ألف مواطن، وهو رقم يفوق بسبعة أضعاف ضحايا

الهجوم على برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك، ويفوق ضحايا الصراع العربي الإسرائيلي طوال قرن من الزمان، وكان ضحايا قطار الصعيد في مصر العام الماضي أكثر من شهداء الحصار على مخيم جنين الذي حوصر وقصف بالدبابات والطائرات وهدمت نصف مساكنه.

وكان مقتل الدبلوماسي الأمريكي "لورانس فولي" في عمان هو أول حادث قتل معلن بسبب الإرهاب يقع في الأردن منذ أكثر من خمسة عشر عامًا، ولم تتجاوز خسائر الإرهاب الذي أعلن عن وقوعه في الأردن منذ أكثر من عشر سنوات خسائر حادث مروري واحد مما يجرى في الشوارع كل يوم أكثر من مائة مرة يوميًا.

ليست هذه الأمثلة للتقليل من شأن العنف والتطرف بدوافع سياسية وأيدولوجية، ولكنها للتذكير أن واجب حماية الأرواح والممتلكات ليس مقصورًا على مكافحة الإرهاب، فالحياة واحدة والخسارة واحدة سواء كانت برصاصة إرهابي أو تحت عجلة سيارة، وللتأكيد أيضًا على أولويات الإصلاح والتنمية، وأن عباقرة الإدارة والحكم العرب المشغولين بالإرهاب يمكنهم أيضًا ويجب عليهم أن يحموا حياة مواطنيهم وزوارهم والمقيمين في ديارهم أيًا كانت مصادر الخطر، وقد يكون الإرهاب في أسفل قائمة مصادر الخطر والتهديد، فقد وقعت عام ٢٠٠١ في الأردن ٨٤ جريمة قتل، ٧٠ جريمة اغتصاب، ٥٧٢ جريمة هتك عرض، ٢٤٠ جريمة شروع في القتل، ٨٥٥ جريمة إيذاء بليغ، ١٣٣٤ جريمة مخدرات.

وتقدم تقارير التنمية البشرية مثل تقرير الأمم المتحدة وتقرير التنمية الإنسانية العربية الذي صدر هذا العام للمرة الأولى مؤشرات واضحة على العجز العربي عن الإصلاح والتنمية وتحقيق الاحتياجات الأساسية ومما لا يرد سببه إلى الإرهاب أو نقص الموارد أو التمويل، ولكن إلى فلسفة الحياة وترتيب الأولويات وأنماط الإنفاق والاستهلاك وضلال برامج التنمية والإدارة أحيانًا وفسادها أحيانًا أخرى، ويمكن أن تقدم خرائط عمل واضحة للتفكير والإنفاق والعمل إن كانت ثمة رغبة فعلية في تحقيق الاستقرار والعدل والأمن والتنمية.

ووفقًا لتقرير التنمية الإنسانية العربية فقد تناقصت نسبة الاسيتعاب للأطفال في المدارس -بدلاً من أن تزيد- في الأردن والعراق والكويت والمغرب، ومازالت الأمية تصل إلى نصف السكان أو تزيد في المغرب واليمن ومصر وموريتانيا وتصل إلى ٤٠٪ بين العرب إجمالاً، ويتدنى التحصيل المعرفي، وتضعف القدرات التحليلية والابتكارية ويتدهور مستوى التعليم باضطراد، ويتوقع أن يزداد حرمان الأغلبية الفقيرة من التعليم مع توجه الدول إلى التخلي عن ضمان التعليم.

ولا تقتصر حروب الشوارع العربية على حوادث المرور والتشرد والتسول والتسرب من المدارس والمخدرات، بل يمكن أن يضاف إليها قائمة طويلة أخرى مثل البطالة التي تصل إلى ٢٠٪ من القوى العاملة في الوطن العربي، أي أن ما لايقل عن عشرة ملايين عربي معظمهم من الشباب المتعلم الذين أتموا دراستهم العليا أو الثانوية على أقل تقدير،

وهي بطالة بدأت تتسرب حتى إلى دول الخليج الغنية، فقد بلغت نسبة البطالة في السعودية ١٥٪ بين السعوديين الذكور حسب تقرير البنك السعودي الأمريكي عام ١٩٩٦، وأما في بقية الدول العربية فهي حسب المصادر الرسمية أو شبه الرسمية كما يلي: الإمارات: ٢,٦٪، البحرين: ٣,١٪، الجزائر: ٢٩,٩٪، السودان: ١٧٪، الكويت: ٧,١٪، المغرب: ١٧,٨٪، اليمن: ٨,٢٪، تونس: ١٥,٦٪ ليبيا: ١١,٢٪، لبنان: ٨,٥٪، مصر: ٨,٧٪، قطر: ٥,١٪، سوريا: ٨,٩٪.

وفي الوقت الذي استطاع العالم بمجمله أن يخفض نسبة التسرب من المدارس أو عدم الالتحاق بها إلى ١٪ ، وتمكنت دول أوروبا وأوقيانوسيا وأمريكا الشمالية وأمريكا اللاتينية وشرق آسيا أن تحقق نسبة استيعاب كاملة لأبنائها ممن هم في سن التعليم فمازال ١٦,٢٪ من الأولاد العرب ممن هم في سن الدراسة لا يتاح لهم التعليم، أي أن خمسين مليون طفل عربي على الأقل ليسوا على مقاعد الدراسة وسيكبر هؤلاء الملايين غدا وهم على أميتهم، فإن أتيح لهم العمل فسيكون عملاً لا يحقق حياة كريمة حتى لو حصلوا على المال الكافي؛ لأن أغلبهم سيكون عاجزًا عن تأهيل أسرته وأبنائه للحياة اجتماعيًّا وثقافيًّا، ففاقد الشيء لا يعطيه.

ويجب أن يقال هنا إن دولاً عربية استطاعت أن تحقق نسبة استيعاب كاملة مثل مصر وليبيا ولبنان وتونس والبحرين والجزائر، ومن المحزن أن دولاً حققت هذه النسبة من قبل مثل الأردن والعراق والكويت وقطر

ثم تراجعت عنها، ولكن الملفت أن دول الخليج كلها عدا البحرين لم تحقق نسبة استيعاب كاملة، وربما يكون من أسباب ذلك تخلي هذه الدول عن التزامها بتوفير التعليم للمقيمين فيها من غير المواطنين.

والشوارع تخوض حروبًا بلا هوادة في الدول العربية على الغابات والمساحات المزروعة في عمليات عشوائية أو مخططة عن سبق إصرار للإعمار والتوطن في المدن، فقد تناقصت الغابات في كل من الأردن التي تراجعت نسبة الغابات فيها في مئة سنة بالنسبة لمجموع الأرض من ٢٥٪ تقريبًا إلى أقل من ١٪، وتناقصت الغابات في الجزائر والسعودية والسودان والصومال والمغرب وتونس وجزر القمر وسوريا ولبنان، وكان التناقص في نسبة الغابات في الوطن العربي والذي يعاني ابتداء من تصحر مريع في السنوات الثلاثين الماضية بمعدل: ٠,٨٪ (أقل من ١٪) أي أن الغابات البائسة في الوطن العربي تناقصت بمقدار مئة ألف كيلو متر مربع، ولم تتزايد في أي بلد عربي.

ويمكن ملاحظة الجوع في الوطن العربي من معدلات سوء التغذية ونقص الوزن بين الأطفال المواليد، ومن المؤكد أنها معاناة ليس سببها في معظم الأحيان -إن لم يكن جميعها- الفقر أو نقص الموارد؛ لأن الدول التي تؤشر إحصاءاتها الرسمية على سوء التغذية ونقص وزن الأطفال ليست دولاً فقيرة إلى الحد المدقع، بل إن بعضها من أغنى دول العالم مثل الإمارات التي يعاني ١٤٪ من الأطفال المواليد فيها من نقص الوزن، وهذه النسبة في الدول العربية هي كما يلي: الأردن: ٥٪

يتـزايدون إلى ٨٪ عند بلوغ الخامسة، البحرين: ٨٪ ، الجزائر: ١٣٪ ، السعودية: ١٤٪ ، السودان: ٣٣٪! ، الصومال: ٢٦٪، العراق: ٢٣٪، الكويت: ١٠٪، المغرب: ١٠٪، اليمن: ٤٦٪، عمان: ٢٤٪، تونس: ٤٪، سوريا: ١٣٪، مصر: ١٢٪، موريتانيا: ٢٣٪.

وتعاني النساء الحوامل من الأنيميا بنسب عالية مفزعة، فتبلغ نسبة هؤلاء في الأردن: ٥٠٪، وفي الجزائر: ٤٢٪، وفي السودان: ٣٦٪، وفي الكويت: ٤٠٪، وفي المغرب: ٤٥٪، وفي اليمن: ٣٨٪، وفي لبنان: ٤٩٪.

الهيمنة الإعلامية لم تعد تفرض أنماط اللبس والموضة وقصات الشعر والأغاني، ولكنها أيضًا تفرض أولويات سياسية وتنموية، فإذا كان مفهوما أن يكون للولايات المتحدة حرب ما أو استراتيجية دفاعية وقائية لمنع ظهور أي تهديد محتمل للولايات المتحدة والقضاء على فرصة أية دولة أو قوة إقليمية أن تتفوق أو تشكل تحديًا للولايات المتحدة وتحريك مؤسسات الدفاع والأمن والاستخبارات والتقنية المتقدمة والصناعات المختلفة بعد تعرضها للركود والخوف عليها من الترهل والانهيار بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وانتفاء أي تهديد لوجود الولايات المتحدة ولتتفق مع استراتيجية الدفاع الوقائي الجديدة التي تقتضي وجود توتر ومعارك وعمليات معادية ومحدودة للولايات المتحدة وتقدم فرصة للتدريب والتحرك ومبررات للضغط والابتزاز، فما هي أولويات الأنظمة السياسية العربية واحتياجاتها لحرب مع الإرهاب ولديها ألف معركة مع الفقر والمرض والجوع والأمية والتخلف والتلوث والتصحر والفجوات التقنية

والتعليمية مع العالم المتقدم والتهديد المرعب بنقص الغذاء والماء؟

يمكن لهذه الجيوش من الشرطة والقوات المسلحة والاستخبارات والأمن الوقائي وأمن الدولة والمباحث والسكرتيرات والمستشارين والصحفيين والعاطلين عن العمل.. أن يفعلوا الكثير لو نزلوا إلى الشوارع والساحات واشتغلوا بتطوير الغابات والمراعي والصحارى وتنظيم المرور وإنقاذ المصابين وحفر آبار المياه والبرك وزراعة الأشجار والحدائق وبناء الجسور والمدارس والسدود والقنوات وصيانة الطرق.

فالأردن يستورد غذاء بأكثر من ألف مليون دولار سنويًا، ويستورد ٩٠٪ على الأقل من احتياجاته من القمح، ويدفع الأردنيون ثمن مكالمات هاتفية أكثر من ستمائة مليون دولار ويدخنون بمئة مليون، ويبلغ العجز في الميزان التجاري حوالي ثلاثة آلاف مليون دولار، ويعاني من عجز مائي ليس له مثيل في العالم، ومع ذلك تبدو الحكومة والنقابات والأحزاب والشركات والاستثمارات مشغولة باحيتاجات وأولويات تجعل المرء يعتقد أن مصممي السياسات ومخططيها لم يقرؤوا تقرير الأمم المتحدة للتنمية البشرية ولا التقرير العربي للتنمية الإنسانية ولاحتى التقارير الوطنية التي تصدرها دائرة الإحصاءات وديوان المحاسبة والبنك المركزي.

obeikandl.com

عراق جديد.. عالم جديد

كان الشاعر العراقي محمد مهدي جوهري -رحمه الله - يعتقد في قصيدته الشهيرة "فاضت جروح فلسطين" أن فلسطين هي حلقة الدومينو التي ستتبعها حبات المسبحة عندما قال:

سيلحقون فلسطين بأندلس

ويعطفون عليها البيت و الحرما

ويسلبونك بغداد وجلّقة

ويتركونك لا لحما ولا وضما

ويبدو بعد أكثر من خمسين عامًا على قصيدة الجوهري أن نبوءته قد تحققت، فقد كانت قضية فلسطين جوهر الصراع والأزمات، وحجر التوازنات والعلاقات الإقليمية والدولية، ومبعث الثورات والانقلابات ، والتغيير السياسي الداخلي والإقليمي والدولي في منطقة الشرق الأوسط.

اليوم يتكون عراق جديد سيكون على الأغلب مندمجًا في السياسات الأمريكية الشرق أوسطية، ولن يكون ثمة قلق إسرائيلي من تفوق عسكري أو إقليمي عربي، وبدأت إسرائيل تسعى بالفعل لاستئناف خط النفط العراقي القديم الممتد من الموصل إلى حيفا ، والذي كان يعمل حتى عام ١٩٤٨ ، ويتوقع أن يوفر في الفاتورة النفطية الإسرائيلية بنسبة ٢٥٪.

ولكن العراق الجديد لن يكون بالضرورة انتصارًا أمريكيًّا وإسرائيليًّا حاسمًا، وثمة ما يدعو إلى أنه مكسب بالنقاط، فالعراق - بشعبه ،ومجتمعه، ومستوى التعليم، والفاعلية الاجتماعية والحضارية، والصحوة الإسلامية، والقومية والوطنية الراسخة فيه- يصعب أن يكون عراقًا أمريكيًّا تمامًا، وأن يكون بلدًا صديقًا للولايات المتحدة.

والنظام الدولي الجديد الآخذ بالتشكل ينزع إلى وقف التفرد الأمريكي في قيادة العالم والهيمنة عليه، وقد تشهد السنوات القادمة منافسة سياسية وعسكرية بين الولايات المتحدة وبين روسيا وفرنسا وألمانيا، وقد تبذل أوروبا جهودًا كبيرة لتحجيم الولايات المتحدة، وتكوّن قطبًا منافسًا، وتوقف الاندفاع الأمريكي.

والتاريخ وطبيعة الحياة تأبى - دائمًا- الانتصار الكامل الحاسم لقوة واحدة، وإن الهزيمة لتنبت في زحمة النصر، كما أن النصر ينبت في ركام الهزيمة، وقد رأينا كيف نهضت اليابان وألمانيا وإيطاليا من هزيمة ماحقة ساحقة عصفت بكل شيء تقريبًا، ولكنها بعد سنوات تجاوزت الهزيمة والخسائر ، وتمكنت من استعادة موقعها المؤثر في خريطة العالم، وفي الوقت نفسه فقد ضعفت بريطانيا، وخسرت برغم انتصارها ؛ بل إنها خرجت من انتصارها كما لو أنها مهزومة.

وسبق للولايات المتحدة أن مرت بها حالة من التفوق مثل هذه، ولعلها تزيد عليها قوة وثراء وهيمنة، وذلك بعد الحرب العالمية الثانية ، وحتى أواخر الستينيات من القرن العشرين، وقد دخلت في الحرب الكورية

بنفس العنفوان والعنجهية والتفوق الذي دخلت به في غزوها للعراق، ثم فييتنام، وبدأت في السبعينات تفقد كثيرًا من تفوقها ومكاسبها السابقة، فقد دخلت مضطرة وكارهة في اتفاقية سالت عام ١٩٧٢، وبدأت تتقرب من الصين، وخسرت في القارة الأمريكية ، مثل خسارتها شيلي ونيكاراغوا، ثم خسرت إيران، وربما دخول الاتحاد السوفييتي إلى أفغانستان عام ١٩٧٩ كان بسبب شعوره بالتفوق على الولايات المتحدة.

وقد بدأ العالم عام ١٩٩١ بعد حرب الخليج الثانية كما لو أن الولايات المتحدة تفردت بالعالم ، ووصلت إلى "نهاية التاريخ" ، ولكن الهيمنة العالمية بدأت تتعرض لتحديات كثيرة ظهرت في السياسات الروسية الجديدة بعد مجيء (بوتين) إلى الحكم، والمواقف الفرنسية الألمانية، وثمة فارق كبير في الموقف الأمريكي العالمي بين عام ١٩٩١ وعام ٢٠٠٣؛ فقد كانت تقود إجماعًا عالميًّا، وتحظى بتأييد عربي كبير رسمي وشعبي ، ولكنها اليوم تنتصر وحدها، ولا يقف معها سوى بريطانيا واستراليا وعلى خجل وخوف، وبرغم ما يبدو من حالة انهيار وفوضى وخسارة في العراق ؛ فإن الحالة العراقية أقل سوءًا بكثير من عام ١٩٩١ .

ويمكن إحصاء عشرات الأمثلة عن الاستفزاز الأمريكي للعالم كله التي تدل على خسارة مستقبلية؛ فقد رفض بوش استقبال وفد وزاري عربي يمثل القمة العربية، ووصف المسؤولون الأمريكان دول أوروبا المعارضة بـ(أوروبا القديمة) ، وهو تعبير كان قبل سنوات قليلة يعد فضيحة وتجاوزًا دبلوماسيًّا تعتذر عنه الولايات المتحدة ؛ حتى لو كان بحق دولة صغيرة،

وتعلن الإدارة الأمريكية بصراحة عن خطط ومشروعات كانت في السابق أسرارًا تخفيها وتنفيها، مثل دعم الانقلابات العسكرية كما حدث في باكستان والمعارضة العراقية، وتذكّر الإدارة الأمريكية دول العالم بعلنٍ ومنّةٍ بمساعداتها، وتهددها أيضًا بوضوح لم تكن تلجأ إليه من قبل.

ربما تكون المرحلة الجديدة من مسار العالم تأخرت عشر سنوات على الأقل، فقد بقي الفراغ قائمًا وسائدًا في العالم منذ انهيار الاتحاد السوفييتي، وانتهت تقاليد الصراع السابقة. وبالمناسبة؛ فإن مرحلة الحرب الباردة - والتي كان فيها قطبان كبيران متنافسان ومتوازنان- منعت قيام عمليات عسكرية على غرار مهاجمة برجيّ مركز التجارة في نيويورك ، برغم الإمكانات الفنية التي كانت متوافرة، ولكن الاتحاد السوفييتي وإن كان يدعم ويمول ويدرب حركات ثورية مناوئة للولايات المتحدة ؛ فإنه كان يمنعها في الوقت نفسه من مواجهة غير محسوبة، وجاء هذا الفراغ ليجعل الصراع بلا قواعد وتقاليد، وهو وإن كان يبدو في صالح الولايات المتحدة في أحيان كثيرة ؛ فإنه ليس في صالحها دائمًا، فقد جعلها ذلك عرضة لمعارك وعمليات غير محسوبة، وجعلها في حرب ومواجهة مع أفراد وتنظيمات وأشباح لا تصلح عدوًا؛ حتى لو انتصرت عليه.

إنها تبدو مثل صراع العملاق والأقزام، فهو وإن كان قويًّا فإن الأقزام الصغيرة والتي يعجز عن رؤيتها تزعجه، وتجعله موضع سخرية؛ حتى عندما يبطش بأحدها.

لو كان في العراق مجتمع أهلي

عندما وقع الاحتلال العراقي للكويت عام ١٩٩٠م تولت الجمعيات التعاونية، والجمعيات الخيرية، والتنظيمات السياسية والاجتماعية - التي كانت قائمة قبل الاحتلال- عبء توفير الاحتياجات الأساسية، وإعادة تنظيم المجتمع وفق احتياجاته وأولوياته الجديدة، وأمكن للمجتمع الأهلي القائم -وإن كان ضعيفًا نسبيًّا- أن يدبر أمور الناس في غياب الحكومة المركزية، واختفاء الدولة في الكويت.

وعندما وجد العراق نفسه -فجأة- بلا حكومة، كان يفتقد أيضا مؤسسات المجتمع الأهلي، من جمعيات وأحزاب وتنظيمات ومؤسسات غير حكومية، وحدث فراغ كبير مفزع، وربما لو كان في العراق جمعيات وروابط ومؤسسات غير حكومية، لأمكن تلافي جزء كبير من الكوارث التي وقعت بعد سقوط الحكومة.

وكانت العشائر العراقية المؤسسة الوحيدة المتبقية من المجتمعات الأهلية، بل هي خط الدفاع الذي لجأ إليه العراقيون لتنظيم وحماية أنفسهم، فقد قدمت بدائل لتوفير الأمن والنظام والتماسك الداخلي والاجتماعي والسياسي.

والواقع أن العشيرة العربية أثبتت أنها أكثر المؤسسات الأهلية العربية قدرة على المبادرة والتكيف والاستجابة للمتغيرات والاحتياجات السياسية

والاجتماعية، وظهرت كتنظيمات قوية تتفوق على الأحزاب، ويمكن ملاحظة ذلك في الأردن في مواقف وشواهد كثيرة، مثل الانتخابات البلدية والنيابية، إضافة إلى المناسبات الاجتماعية والمشكلات والنزاعات.

فالعشائر لم تكن جامدة إلا في المواقف التي حدث فيها تجاهل لها، وإهمال متراكم جعلها تتوقف في مرحلة ماضية ولم تتجاوزها، ففي الترشيح للانتخابات -على سبيل المثال- قدمت العشائر من أبنائها المتعلمين والسياسيين الذين يمكن أن يجتذبوا أصواتًا أخرى من غير قواعدهم الأساسية، فقد رشحت إسلاميين ويساريين على الرغم من الطابع التقليدي السائد، وكان معظم مرشحيها من حملة أعلى الشهادات، وذوي الخبرات المهنية والسياسية الطويلة، ولم يعد ثمة زعامة تقليدية تحتكر القرار والترشيح.

والجمود الملاحظ في بعض العادات والتقاليد ليس طابعًا ثابتًا في العشائر، فلو أُخذت الثقافة السائدة بالاعتبار، لأمكن بناء ثقافة وطنية ومحلية ذات فاعلية وأثر تقدمي ربما يتفوق على الجهود الليبرالية الرسمية، ويمكن ملاحظة ذلك -على سبيل المثال- في تعليم البنات وعملهن، فما يلاحظ اليوم من انتشار التعليم الجامعي في الأرياف والبوادي، والعمل بعيدًا عن الأهل، والسفر للتعليم والعمل في أوساط محافظة جدًا؛ هو في حقيقته حراك ثقافي طبيعي توصلت إليه المجتمعات المحلية بمشاركة وتفاهم مع المؤسسات الرسمية، ولم يكن بفعل جهود تحديثية قسرية أو معزولة وفوقية، وإلا فلماذا لم تنجح محاولات وأفكار تحديثية أخرى؟

لقد كشفت الأحداث التي جرت في العراق -كما في أحداث أخرى كثيرة- أن الجيوش وحدها لا تحمي الدول والأمم والمجتمعات، وربما يحميها أكثر التماسك الداخلي، وقوة المجتمعات المدنية والأهلية والمؤسسات المحلية، وشبكة الحكم والعلاقات الاجتماعية والمهنية، والروابط والاتصالات غير الرسمية، والمشروعات الإنتاجية والاقتصادية الصغيرة المتكاملة، والمبنية على الاحتياجات الأساسية وتفعيل الموارد المتاحة والممكنة، والتي تمكن الناس من تدبير معاشهم واحتياجاتهم وإدارة شؤونهم، دون موارد إضافية أو تعقيدات مؤسسية وبيروقراطية وتنظيمية.

إعادة بناء المجتمعات وتنظيمها وفق الاحتياجات الأساسية هو أيضًا مطلب تقتضيه التوجهات العالمية نحو الخصخصة، وتقليل دور الحكومات والدول في تقديم الخدمات وتوفير احتياجات الناس، وقد أكدت عليها المؤسسات الدولية مثل البنك الدولي، وتشجع هذه المؤسسات وترعى مشروعات الحكم المحلي، وإسناد أدوار كثيرة ومهمة للبلديات والمحافظات كانت تتولاها الدولة، مثل الأمن والمحاكم الأولية والتعليم والرعاية الصحية والاجتماعية، وتمكين المجتمعات والعائلات وإعانة الفقراء والمحرومين والاقتصاد التعاوني.

ويمكن للدول والمجتمعات -بإسنادها دورًا كبيرًا للمجتمعات المدنية والبلديات والنقابات والاتحادات المهنية والعمالية- أن تقلل من النفقات، وتفعِّل الموارد وتعيد توزيع الإنفاق العام؛ لتوجيهها نحو الفئات الأكثر احتياجًا، ونحو القضايا والاحتياجات الأكثر أهمية وإلحاحًا.

obeikandl.com

وباء المرآة

يعود وصف النرجسية إلى أسطورة قديمة تقول: "كان (نرسيس) فتى جميلاً يمضي معظم وقته يتأمل جمال وجهه على صفحة الماء في إحدى البحيرات، وكان مفتونًا بصورته منشغلاً في تأمل ذاته حتى أنه سقط وهو مستغرق في النظر في البحيرة وغرق، وفي المكان الذي سقط فيه نبتت زهرة سميت نرسيس "نرجس" وجاءت الورود ربات الغابة إلى ضفة البحيرة العذبة ووجدتها قد تحولت إلى جرن دموع، فسألت الورود الغابة: لم تبكين؟ قالت: أبكي من أجل نرسيس؛ فقالت الورود: لا بد أن وفاته تحزنك فهو فتى جميل وكنا نلاحقه في الغابة، ولكنك الوحيدة التي كانت تستطيع مشاهدة جماله عن كثب.

سألت البحيرة الورود: وهل كان نرسيس جميلاً؟

قالت الورود: وهل يعرف أحد جماله أكثر منك، ألم يكن ينحني على ضفافك كل يوم ساعات طويلة؟

قالت البحيرة: لم ألاحظ أن نرسيس كان جميلاً، ولكني أبكي لأني كنت في كل مرة ينحني فيها ويتأمل في الماء أرى صورتي في عينيه، ولم أعد قادرة بعد اليوم على رؤية نفسي".

والنرجسية هي في تسميتها العلمية "الانشغال بالذات" أو (autism) ويعد هذا في علم النفس من اضطرابات النمو، ويشغل المرشدون النفسيون والإجتماعيون بعلاج الأطفال منه، ويصيب عادة الأطفال ولكن

قد يستمر المرض مع البعض حتى يكبروا، ومن أعراض هذا المرض كما وردت في قاموس الخدمة الاجتماعية: عدم أو قلة الاهتمام بالعالم الخارجي، وعدم القدرة على التعامل مع الأشياء والناس، ويكرس المصاب بهذا المرض كل اهتمامه برغباته ومشاعره الشخصية الداخلية، وعجز المهارات الاجتماعية ومهارات الاتصال، وأسلوب غير سويّ في إقامة علاقات مع الآخرين، واستجابات غير طبيعية أو غير مألوفة للمشاعر والأحاسيس.

والنرجسية مرض يؤدي إلى كراهية الناس للمريض ونفورهم منه، وقد يكون المريض خطرًا على نفسه، ويوقع نفسه في الموت والأذى والعزلة والاكتئاب والهوس، فكثير من حوادث المرور الخطرة والقاتلة ترد إلى انشغال السائق بنفسه فقط، وعدم ملاحظته للآخرين، واعتقاده اللاشعوري أن الطريق له وحده ولا يشاركه فيها أحد.

ويبدو أن النرجسية أو الانشغال بالذات تفسر الكثير من المشاهد والمواقف التي نلاحظها بالجملة في حياتنا اليومية، في الشارع وطريقة قيادة السيارات والتصرفات المرافقة للقيادة، والكتابة الصحفية والعمل الإعلامي بعامة، والخطب والتصريحات والسلوك اليومي في المكاتب والإدارات والمحادثات العفوية والمجالس، وأسلوب الإدارة والعمل والعلاقات مع الآخرين والبيئة المحيطة، وفي الحوار والتعلم والتعليم والاتصال، والفيديو كليب، وهكذا فإن هذا المرض أو هذه الظاهرة تمتد إلى معظم شؤون الحياة العامة والخاصة، وليست مجرد نقص اجتماعي

أو حالة تستدعي الإرشاد والتدخل.

فهي في الحياة الاجتماعية تفسر عدم قدرة الناس على الحوار والاستماع الفيزيائي بالأذن فضلاً عن الإصغاء والتفكير فيما يقوله ويكتبه الآخر، ومن ثم عدم القدرة على التواصل مع الآخرين والتعلم منهم وإفادتهم وتعليمهم وتبادل المعارف والتجارب.

وفي العمل السياسي تفسر ضعف المشاركة والتفاعل مع البرامج والمواقف حتى الصائبة منها، فلا يكفي للبرامج والمشروعات أن تكون صائبة إذا لم تجد القبول والمشاركة، وما ينقص البرامج والأفكار التي تقوم عليها المؤسسات الرسمية والأهلية لا يكون دائمًا الصواب وسلامة التفكير والتنظير والتخطيط، ولكن قناعة الناس بها وإقبالهم عليها، والناس حين يتخذون مواقف خاطئة لا يقدمون على ذلك دائما لجهلهم بالصواب ولكنهم يمارسون احتجاجًا سلبيًّا، وربما يكون أفضل تفسير للسلبية وضعف المشاركة والإقبال هو الاحتجاج، والمقاومة بالحيلة، ومعاقبة من يعتقد الناس أنهم يفكرون ويعملون بفوقية وأنانية حتى في عطائهم وبذلهم، فالناس ترفض العمل العام المعزول عن رأي الناس ومشاركتهم.

وهو أمر يمكن ملاحظته في الفرق بين مؤسسات ومرافق أقيمت بمبادرات ومشاركة وبين أخرى قدمت للناس جاهزة بذل فيها مال كثير وجهد وتخطيط، ولكنها مصحوبة بالوصاية على الناس وتجاهلهم.

حتى في العلاج والمستشفيات فإن تجاهل المريض ومظنة الطبيب

مهما كانت خبرته وعبقريته أن المريض "شيء ما" لا حق له في الاختيار والمشاركة في العلاج يحبط المريض ويقلل استجابته للدواء والعلاج، وقد ينجح الأطباء في التشخيص وفهم المرض لكنهم يفشلون في المحصلة النهائية عندما يتجاهلون المريض تمامًا ولا يشعرون بوجوده، ويبالغون أحيانا بالرطن والاستعراض مع المساعدين والمتدربين المحيطين بالمريض المسكين.

وسأنقل هنا وصفًا حرفيًّا لأحد المرضى الذين تلقوا علاجًا في أحد المستشفيات الكبرى، يقول وهو رجل كبير السن أكسبته الحياة والفطرة كثيرًا من الحكمة والبصيرة: "التف حولي الأطباء وهجموا عليّ كما الضباع التي تلتهم الفريسة" لقد شفي الرجل ونجحت العملية ولكنه بقي يشعر بالاستياء ومذلة التجاهل.

وعاد الرجل إياه بعد سنوات إلى المستشفى نفسه، وأشرف على علاجه طبيب آخر لا بأس هنا من ذكر اسمه وهو الدكتور "مجلي محيلان" وظل الرجل بعد ذلك يذكر الطبيب بالخير ويشعر نحوه بامتنان عميق، لأنه برأيه إنسان قبل أن يكون طبيبًا، كان يطلعه على حالته ويشرح له ويمزح معه ويتعامل معه بصداقة واحترام، هذا برغم أن العملية أجريت له مرتين، فلم تنجح المرة الأولى بالتنظير واحتاج الأمر إلى الجراحة، وتأخر المريض في المستشفى وشعر بآلام وإحباط.

وربما تكون المأساة الأكبر حين تتحول المرآة إلى إدمان لا يمكن التخلص منه، فيستغرق فيها بعض الناس ليس جهلاً وعدم معرفة

بالصواب، ولكن استمتاعًا بلذة الوهم، أو تتحول غيبوبة النرجسية إلى مصالح وكيانات، والحقيقة إلى عدوٌ تجب محاربته، وقد يلتبس الأمر على المشتغلين بالإصلاح في هذه الحالة، فيغفلون عن فهم العمل العبقري الموجه لمنع الصحو واليقظة.

حوادث المرور، والغثاء في الإعلام والغناء والفن والأحزاب والبرامج العامة والثقافية، وضعف التعليم وتراجع الفكر والنشر والقراءة، والجريمة والمخدرات والانحراف، والعزوف عن المشاركة والعمل العام والتطوعي، وغير ذلك كثير يجمع بينها شيء واحد، وتحتاج في مواجهتها إلى علاج نفسي واجتماعي وتأهيل يأخذ بالحسبان حالة النرجسية، والانشغال بالذات المفشية إلى درجة الوباء.

obeikandl.com

obeikandl.com

الإعداد الذاتي للداعية

يعد الجانب الذاتي الجزء المهم والأساس في برامج التربية والتدريب، ومن دونه لا تنجح هذه البرامج ولا تحقق أهدافها، ذلك أن عجلة الحياة لا تتوقف فتأتي في كل لحظة بتجارب وأفكار وخبرات وفرص لا يجوز فوتها.

والمنهج الإسلامي في التربية والعبادة يرى هذه الرؤية والفلسفة؛ فالعبادات والمعاملات تنبثق من رقابة ذاتية ومسؤولية لدى المسلم مع الحرص والرغبة في نيل رضا الله -تعالى- والشعور بأنه يراقبه دائمًا وينتظر الثواب ويخاف العذاب.

وتؤكد الآيات والأحاديث دائمًا على ضرورة وعي الأهداف والحكم من العبادات فإنها من غير ذلك تكون أفعالاً جوفاء ، قال تعالى : ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (البقرة: ١٨٣)، فإن لم يحقق المسلم بالصوم التقوى؛ فقد أخل بالغرض الذي شرع الصوم من أجله وإن كان يشارك المسلمين بالشعائر الظاهرة للصوم، وقال صلى الله عليه وسلم : "رب صائم ليس له من صومه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا التعب والنصب" وقال تعالى: ﴿**لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ**﴾ (الحج: ٣٧) وقال: ﴿**إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**﴾ (العنكبوت: ٤٥)، وقال

صلى الله عليه وسلم: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعدًا ".

وحين نفكر في تحقيق حكم العبادات وجوهرها نجد أن الدافع الذاتي والحرص على الشعور بها هو الذي يجعل هذه العبادات والشعائر لا حركات شكلية بل أداءً حيًّا يسري في حياة المسلم اليومية وفي ضميره وروحه وعقله فيصقله ويسمو به عن المعصية والانحراف.

ويقدم الحديث النبوي تمثيلاً حكيمًا مؤثرًا حين يرينا كيف يختلف أثر الدعوة في الناس حسب طبائعهم ومشاربهم وصفاتهم الفردية؛ فالناس كما وصفهم الحديث في معاملة ما بعث الله به نبيهم -صلى الله عليه وسلم- كمثل الأرض والتربة: بعضها طيب فيقبل الماء فينبت الكلأ، وبعضها يحفظ الماء للناس ولا تقبله، وبعضها قيعان لا تحفظ ماءً ولا تنبت زرعًا!

وحين نستعير الأفكار السابقة ونجعلها في برامج العمل نؤكد أولاً أن منهاج العمل الإسلامي يعتمد غالبًا في النجاح والفاعلية على الجهد الذاتي والصفات الفردية لدى الدعاة، وهم يستفيدون من هذه البرامج بقدر استعدادهم وجهودهم الذاتية.

وحتى نعين الأخوة الدعاة على فهم هذه الفكرة في خطوات وبرامج عملية فإننا نقدم الأفكار والاقتراحات التالية :

(١) يكف معظم الناس بعد سن الخامسة والعشرين بسبب مشاغل الحياة وزيادة المسؤولية وضعف الحماس والتقدم في السن، وضعف الصحة عن ممارسة مواهب نافعة، يكفون عن المطالعة والقراءة والمشاركة

في الأنشطة العامة، لكن على الداعية أن يلتزم مهما تكن حاله اقتصاص وقت مناسب للقراءة والمشاركة والرياضة والكتابة والأعمال الفنية والحرفية، فإنه إن لم يفعل سيجد نفسه بعد سنوات فقد صلته بالمجتمع المحيط والأجيال الصاعدة.

(٢) أن يرسم الداعية خطة للثقافة الذاتية الجادة لتحقق فهمًا للإسلام وأحكامه والمجتمع الواقع المحيط، والعمل الجماعي وأصوله وقواعده تعتمد على المصادر الأولية والبحث العلمي، وتتجاوز الكتب المبسطة، أو الكتب المختصرة المتكررة.

(٣) أن يشترك الداعية في مكتبة عامة ويتتبع المجلات المختصة والنتاج الفكري الجديد في مجال واحد يختاره .

(٤) اغتنام الفرص والسعات التي تتيحها المؤسسات التي يعمل بها أو يدرس ، كالدورات مثلاً، ولا يزهد فيها أو تمنعه مشاغله أو ضعف همته وإرادته لتحول بينه وبينها.

(٥) حيازة أكبر قدر ممكن من المهارات العملية والفنية والحرفية، كرخصة القيادة والحاسوب والمقالة الصحفية والأدبية والرسم، أو المهارات اليدوية والفنية كصيانة السيارات والأجهزة والحدادة والنجارة وكل ما ينفع المسلم والمسلمين، والسعي الدائم في الاعتماد على النفس في أداء الأعمال اليومية والاحيتاجات، قال صلى الله عليه وسلم: «ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده».

(٦) المشاركة في الدورات التي تعقدها مؤسسات شتى لقاء أجر

كالمراكز المهنية الأهلية المختلفة.

(٧) إتقان لغة أجنبية يوسع الداعية ويزيد ثقافته.

وأخيرًا فثمة أوصاف وشروط تلزم الداعية والمشاركين في العمل الإسلامي نذكِّر الدعاة بها ليسعوا إلى تحقيقها :

- رحابة الصدر وسعة الأفق .
- احتمال الرأي الآخر والرضى برأي الغالبية .
- فهم الأحداث الجارية وربطها وتفسيرها.
- فهم المجتمع المحيط فهمًا أصيلاً يحيط بتاريخه ونشأته وأسبابه الحضارية والثقافية والاقتصادية والخدمات والمرافق.
- دراسة تاريخ الدعوة الإسلامية ومبادئها وسبر أعماق العمل الإسلامي الاجتماعية والتنموية والنقابية .
- اغتنام الوقت وحسن تقسيمه .
- القدرة على الإدارة والتخطيط وإدراك أصول العمل الجماعي وقواعده العلمية.

ولا بد أن يحقق الداعية نفسه جملة من الأخلاق والشروط ذكرناها آنفًا، لكننا نوردها هنا؛ ليفهم الداعية أنها إطار التكوين الذاتي وجوهره، وبدونها يفقد العمل معناه ولا يختلف عن سواه من الأعمال، وهي: تقوى الله وعبادته والإنابة إليه، والشجاعة والكرم والحلم والأناة، والقدوة الحسنة وسائر ما وصى به ديننا الحنيف وما تسعى به الدعوة الإسلامية ليتحلى به أبناؤها: ﴿**وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ**﴾ (الأعراف: ٢٦)، ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**﴾ (البقرة: ٢٨٢).

الدعوة الإسلامية في عصر المعلومات

تتشكل اليوم قناعة لدى القادة والمفكرين وكثير من الناس أن العالم على أعتاب مرحلة جديدة سببها تقنية "المعلومات والاتصالات" تتغير فيها جذريًا موازين القوى والاقتصاد والتجارة ومنظومة الحياة والقيم.

وقد لقيت الدراسات التي تبشر بهذا التحول إقبالاً واهتمامًا كبيرًا وكان أشهرها «الموجة الثالثة» (لألفن توفلر)، إذ بيع من الطبعة الأولى من الكتاب عشرة ملايين نسخة، ويعتقد (توفلر) أن البشرية تدخل المرحلة الثالثة -أو الموجة الثالثة -في مسارها بعد موجتي الزراعة والصناعة وهي مرحلة تنطوي على أنماط جديدة من الحياة والمجتمعات تختلف جذريًا عما سبقها.

وأصدر عالم الاجتماع الياباني "يونيجي موسودا" كتابًا بعنوان: "مجتمع المعلومات القادم" يتنبأ بمجتمع ياباني جديد في أشكاله وتنظيماته ومؤسساته وأدوار أفراده وحكامه ونسق القيم والمعايير التي تولد الغايات وتحكم العلاقات بين الأفراد والمجتمع والمؤسسات.

وأصدر المجلس الوطني للثقافة والآداب في الكويت كتاب "العرب وعصر المعلومات" للدكتور نبيل علي الذي يعتقد أن الأمة وضَعَهَا عصرُ المعلومات الجديد أمام مخاطر التبخر والانقراض أو تحدي

التقدم والنهوض.

ومن أكثر قادة "إسرائيل" اقتناعًا بطبيعة المرحلة الجديدة هو شمعون بيريز الذي أصدر مجموعة دراسات منها "مرحلة جديدة لا مكان فيها للمتخلفين ولا عذر للجهلة"، و"مارشال الشرق الأوسط"، و"إسرائيل على عتبة القرن الحادي والعشرين" إضافة إلى كتابه المشهور "الشرق الأوسط الجديد". ويقترح فيها بيريز تصورًا جديدًا للحياة والعلاقات في الشرق الأوسط مبنية على تغيرات مهمة.

وقد سئل بيريز إثر إعلان واشنطن "الاتفاق الأردني -الإسرائيلي": هل تخلت إسرائيل عن مشروع إسرائيل الكبرى"؛ فقال: إسرائيل الكبرى تقنيًا واقتصاديًا وليس جغرافيًا..

لقد بدأ الفعل الحضاري للإنسان عندما تحول من الصيد والرعي إلى الزراعة، فقد رافق ذلك الاستقرار وبناء القرى والحواضر ونشوء الحضارات والتشريعات والفكر والفلسفة، وكان محور القوة الإنسان بعقله وحكمته وشجاعته وقوته الجسدية، واستقرت البشرية على ذلك أكثر من سبعة آلاف سنة حتى اكتشفت الآلة البخارية والطباعة ثم الثورة الصناعية في القرن السابع عشر فتغيرت الحضارة والحياة وتغير الاقتصاد، إذ أصبحت الآلة مدخل التفوق العسكري والإنتاج.

ومنذ ظهر أول كمبيوتر عام ١٩٤٨ حتى نهاية الثمانينيات (أي في أربعين سنة فقط) حدثت نقلات وثورات في التقنية، وانتقلت الصناعة والتجارة إلى آفاق جديدة حتى إن الناتج العلمي لصناعة

المعلومات "الكمبيوتر والاتصالات والإعلام.." تجاوز الألف مليار دولار لتكون أول صناعة في التاريخ تحقق"التريليون".

وانتشرت تطبيقات صناعة المعلومات في كل اتجاه ومجال للحياة: في المصانع، والحقول، والمنازل، ومكاتب، الإدارة، وسفن الفضاء، وفصول الدراسة، وغرف العمليات. وبمستويات من التطبيق تراوح بين المهارات الدنيا وتصل إلى أدقها وأعلاها، كالترجمة ومعالجة المعلومات وتشخيص الأمراض وقراءة الخرائط والتدريب، والتعليم الذاتي، والتسلية...

إن هذه التطبيقات الجديدة في التقنية ستنتقل بحياة الناس الاقتصادية والاجتماعية والعلمية إلى آفاق جديدة، وستطرأ عليها تغيرات جوهرية فينقرض جزء منها، وتزداد أهمية أجزاء أخرى، وتتغير صيغ الإدارة والعلاقات والقيم والهياكل والبنى التنظيمية والاجتماعية والتشريعات والأنظمة.

فالعمل تغيرت طبيعته وأهميته، فكان توزيعه -مثلاً- في أمريكا حتى أوائل القرن العشرين كما يلي: معلومات: ٨٪، صناعة: ٦١٪، زراعة: ٢٤٪، وصارت نسبة العمالة في مجال الصناعة في الأربعينيات ٤٠٪، (لاحظ انتقال الأهمية من الزراعة إلى الصناعة) في عام ١٩٨٠ كان توزيع العمالة: معلومات: ٥٤٪ صناعة: ٢٠٪، زراعة: ٤٪، "انتقلت الأهمية من الصناعة إلى المعلومات".

ويقصد بالعمالة في مجال المعلومات أعمال الكمبيوتر والاتصالات

والنشر والإعلام والتخطيط ونظم المعلومات، والتأليف...

وهو توزيع سيؤثر بالطبع على اتجاهات التعليم والتدريب لتلائم تحولات سوق العمل واحتياجاته، فمثلاً لم يعد بإمكان ٣٠٪ من المدراء في أوروبا وأمريكا إحراز ترقيات بسبب عجزهم عن استخدام الكمبيوتر.

وأتاحت تقنية المعلومات تدفقًا هائلاً في المعلومات "انفجار المعلومات" وإمكانية تحصيلها، حتى أنه ينشر في العام الواحد أكثر من مئة مليون صفحة، وهو تدفق يشكل تراكمًا في العلم والمعرفة واستدراكًا ونقضًا حتى إن عالمًا مثل "اميليو سيريجر" الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء يقول: أجد من المستحيل عليَّ مراجعة كل ما يكتب عن الميزونات (أحد مكونات الذرة).

وهو تدفق يغير العلوم والمعارف والمعلومات بسرعة تجعل نصف ما تعلمه المهندس عفا عليه الزمن خلال خمس سنوات، وتجعل التعليم المستمر وإعادة التأهيل جزءًا مستمرًا وضروريًا من برامج المؤسسات والأفراد.

وبانتشار المعلومات وسهولة الحصول عليها بالأقمار الصناعية، وشبكات الاتصال والإنترنت تصعب وقد تستحيل أعمال الرقابة وضبط تدفق المعلومات وتبادلها، وربما يفسر هذا التحولات نحو الديمقراطية والانفتاح الذي جرى في الاتحاد السوفياتي سابقًا وأوروبا الشرقية.

لقد أصبحت المعلومات مصدر القوة الأساسية، وستكون معيارًا اجتماعيًّا ووسيلة ارتقاء ومواردًا اقتصاديًّا، وتتأكد قيمة احترام الملكية الفكرية، والحرص على البيانات والأمانة العلمية.

وأدى تحول التقنية من محاكاة الجسد والعضلة إلى محاكاة الذهن والعقل إلى تغيير في ترتيب أهمية العلوم، فكان تطوير الصناعة يعتمد على الفيزياء والرياضيات وتطبيقاتها الهندسية ولكن تقنية المعلومات زادت أهمية الإحصاء والاحتمالات وعلم الحياة وعلم النفس واللغة والاجتماع لإعادة وتطوير فهم الإنسان والعقل فبرامج الذكاء الاصطناعي تعتمد على مقدرة الإنسان على ضبط هذه العلوم وتحويلها إلى قواعد ومناهج وقوانين كالفيزياء والرياضيات، وقد بدأ هذا يتحقق بالفعل وبخاصة في مجال اللغويات.

وبما أن الإنسان يتعلم كل لحظة ويزداد علمه ويعيد النظر باستمرار فيما تعلم فسيتجه العلم باتجاه التعلم الذاتي والنسبية دون التفات إلى الحقائق المطلقة، وتتحول خصائص الحياة والعمل والعمران من الديمومة والثبات إلى التغير والزوال والجدة.

ولا يمكن الفراغ من رصد متوالية التغيير ومسارات الحضارة والمجتمعات ولكن الغرض تأكيد وجاهة السؤال الذي يقتضيه العنوان: إلى أين يتجه العمل الإسلامي؟

لقد أصبحت مداخل التأثير والتوجيه متنوعة ومعقدة منها الصحف المتطورة والقنوات الفضائية وشبكات المعلومات وسيؤدي

الغياب عنها إلى شلل وتراجع وانحسار.

وازدياد أهمية المعلومات وقيمتها يعني أن تكون قواعد البيانات ومراكز البحوث والدراسات محورًا أساسيًّا في العمل لأجل الإحاطة بمدخلات العمل والتخطيط والقرار الصائب الراشد.

ويكون التدريب وإعادة التأهيل لعناصر العمل وفق هذه الاحتياجات الجديدة جزءًا رئيسًا من برامج العمل ومواضع الإنفاق والموازنات.

إنها متوالية غير منتهية في المسارات والآفاق الجديدة وليس هنا موضع الإشارة لها أو الإحاطة بها، ولكن الهدف هو التأكيد على أهمية التفكير بالآفاق والمراحل الجديدة وتنمية الإدراك والشعور بهذه المرحلة والمخاوف المرافقة لها، وقد كدت أكتب عنوان المقال "حتى لا نتبخر" أو "قبل أن ننقرض".

القراءة: سر الحياة والتواصل

تعتبر المعلوماتية والاتصالات عنوان مرحلة عالمية جديدة في التقنية والموارد والقوة والتحولات الاقتصادية والاجتماعية تماثل في تأثيرها وعمق تحولاتها مرحلتي الزراعة والصناعة في تاريخ البشرية ومسارها، أو هي كما وصفها ألفن توفلر: الموجة الثالثة بعد موجتي الزراعة والصناعة، ويعد تقرير للأمم المتحدة "جيران في عالم واحد" الذي أعدته لجنة إدارة شؤون المجتمع العالمي الكمبيوتر أهم حدث في تاريخ البشرية بعد الإسلام.

وتعتمد المعلوماتية على اللغة أساسًا، أو هي محاولة تطبيق القدرات الإنسانية التي تعبر عنها اللغة في التقنية والآلة، فكما كانت الثورة الصناعية هي محاولة تقليد عضلة الإنسان وقدرته الجسمية في آلات تؤدي الغرض نفسه ولكن بإمكانيات مضاعفة؛ فإن الكمبيوتر يحاول مضاهاة القدرات اللغوية للإنسان.

وهذا يجعل اللغة أساس التقدم والبحث العلمي في المرحلة الجديدة، كما كانت الرياضيات والفيزياء أساس الثورة الصناعية، وربما يجعل هذا إعادة التفكير في الصوت واللغة والقراءة والكتابة مطلبًا ضروريًا؛ فالتقدم الإنساني والتواصل بدأ باللغة، وعبر عن اللغة بالصوت، ثم بالقراءة والكتابة، والمعلوماتية تعيد الناس اليوم إلى أساس الحياة

وأسرار التواصل والتفاعل والتقدم التي أغفلتها الصناعة.

والكتابة أساس القراءة، وقد بدأت الكتابة في سوريا والعراق كما تدل أقدم آثار معروفة للكتابة، وكان السومريون في العراق أول من أعد ألواحًا من الصلصال ينقشون عليها رموزًا ومقاطع وصورًا تعبر عن الحقائق والأفكار التي تحتاج إلى تسجيل.

وربما وجد الإنسان الذي يعاني من الفناء ويتطلع إلى الخلود حيلة في "القراءة" تجعله خالدًا، فهو يقرأ الماضي ويطلع عليه ويقدم فكره وتجربته لمن بعده ليبقى حيًّا، ولكن هذا الرأي لا ينفي أيضًا رؤية للقراءة بأنها فعل إنساني عميق مستمد من الحب والعلم والشغف بالحقيقة، وكانت القراءة الصامتة الشائعة اليوم تحولاً في تاريخ القراءة ولم تكن البداية، ويحب الغرب نسبتها إلى القديس أمبروسيوس في القرن الرابع الميلادي، ولكن في التاريخ أيضًا أن الاسكندر الأكبر قرأ في القرن الرابع قبل الميلاد رسالة وردت إليه بصمت مما جعل جنوده يتعجبون، ومن المؤكد على أية حال أن القراءة بصوت مسموع كانت شائعة أو هي القاعدة المعتمدة.

ويتذكر الإنسان ما يقرأ ويحفظه وهو في ذلك ربما تدفعه أشواق الخلود والبقاء، وكان بعض الناس قادرين على حفظ ما يقرؤونه لمرة واحدة، وكان الحفظ من الحيل التي يلتف بها "فدائيو العلم" على ندرة الكتب أو منعها؛ فتتحول الكتب إلى جزء من كيان الإنسان يستحيل نزعه.

والذاكرة أيضًا تجمع ما كتبه الناس وتختزنه لتقديمه إلى الأجيال

اللاحقة، وكان الطبيب الروماني آنتيلوس من القرن الثاني الميلادي يعتقد أن من لا يحفظ الأشعار عن ظهر قلب وإنما يرجع إلى الكتب لا يستطيع التخلص من العصارات السامة الموجودة في جسمه إلا بمجهود كبير وبواسطة تعرق فوق العادة، في حين أن الناس المتمرنين على التخزين في الذاكرة يطردون هذه العصارات السامة عبر الزفير.

القراءة بصوت مرتفع، والقراءة بصمت، والقدرة على تخزين المفردات، كل هذه قدرات مدهشة تعلمناها بطريقة لا يمكن تفسيرها، ويعتبر تعلم القراءة في كل المجتمعات نوعًا من المبادرة في مباشرة العمل ومرحلة انتقال حافلة بطقوس من الاتكالية والمواصلة البدائية إلى ما هو أرفع وأسمى، فتعلم القراءة يفسح المجال أمام الطفل للدخول إلى قلب الجماعة، ويصبح مطلعًا على تراث الماضي المشترك.

ويستمتع الأطفال والكبار أيضا بقراءة القصص وروايتها، وتعتبر هذه العادة جزءًا تقليديًّا من تنشئة الأطفال وحفظ التراث، والاستماع هو المدخل الأول للتعليم ولذلك فإن الذين لا يسمعون لا يتعلمون ويمكن للمكفوفين أن يكونوا علماء وعباقرة.

واستخدمت القراءة على العمال في كوبا في القرن التاسع عشر لتلافي معضلة الأمية المتفشية، وكان يعّين أحد العمال قارئًا يتلقى أجرًا من العمال الآخرين مقابل قراءة الصحف والكتب لهم، وكان الاستماع يعين العمال على مواجهة الروتين والبلادة ويعلمهم أشياء إضافية. وظهر أيضًا القراء المتجولون بالنصوص والأغاني الذين كانوا يطوفون

في أنحاء البلاد.

وكان الفلاحون والعمال في مختلف الثقافات يتجمعون في البيوت والمقاهي والحانات في المساء بعد العمل ويستمعون إلى قارئ يتلو قصصًا عن البطولات الخارقة للفرسان الشجعان والملوك من الأسلاف، ولدينا من ذلك قصص الزير سالم وسيرة بني هلال، وأبو زيد الهلالي، وعنترة، وروايات ومنقولات تراثية أخرى يتفرد بها كل مجتمع من قصص الصحراء والبطولة والتراث والأساطير.

وتعد الكتب والمكتبات في الحضارة العربية الإسلامية من أهم الإنجازات الثقافية التي عني بها المسلمون، وكان لها دور كبير في الحياة الثقافية والعلمية بين المسلمين وفي العالم.

ويذكر ول ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) "لم يبلغ حب الكتب في بلد آخر من العالم إلا في بلاد الصين في عهد منج هوانج ما بلغه في بلاد الإسلام في القرون: الثامن، والتاسع، والعاشر، والحادي عشر".

وتطورت المكتبات ونضجت وازدهرت في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وبلغت ذروتها في القرن الرابع، وشهد القرن الثاني الهجري تطوير أو اختراع الورق الذي نقل الحركة العلمية نقلة مهمة وبعيدة؛ فازدهرت صناعة النشر (الوراقة).

وعرفت مكتبات خاصة كثيرة، مثل: مكتبة خالد بن يزيد بن معاوية، والكندي الفيلسوف العربي المشهور، وأبناء موسى بن شاكر الذين كانوا علماء في الفلك والفيزياء، وابن العميد وزير البويهيين، وكانت هذه

المكتبات شبه عامة.

وذكر ياقوت قولاً لابن عباد أن في مكتبته مئتان وستة آلاف مجلد، ثم وقف هذه المكتبة بعد وفاته لمدينة الري، وزارها بعد ذلك البيهقي وقال: إن فهرسها يقع في عشر مجلدات.

وقال ول ديورانت في (قصة الحضارة): إن كتب ابن عباد كانت تفوق جميع ما في دور الكتب الأوروبية مجتمعة.

وقال ياقوت: إن الواقدي عندما تحول من الجانب الغربي من بغداد نقل كتبه على مئة وعشرين جملاً، والواقدي مؤلف كتاب المغازي (ت سنة ٢٠٧هـ) قال: ما من أحد إلا وكتبه أكثر من حفظه، وأنا حفظي أكثر من كتبي.

ومن طُرف جمع الكتب في الأندلس ما يذكره التلمساني في (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) أن الناس كانوا يجتهدون في شراء الكتب وجمعها وهم لا يعرفون عنها شيئًا سوى أنها من وسائل التباهي والتفاخر، فيذكر الحضرمي أنه لازم سوق الكتب يترقب كتابًا فوجده بخط فصيح وتفسير مليح، ففرح به وجعل يزيد في ثمنه ويزيد غيره، فطلب من يزيد عليه فرآه شخصًا عليه لباس رئاسة، فقال له: أعز الله سيدنا الفقيه إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت الزيادة بيننا فوق حده، فقال له: لست بفقيه ولا أدري ما فيه، ولكن أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد

استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم من الرزق فهو كثير.

وكان مالكو الرقيق في أمريكا يرفضون حتى مجرد التفكير في شعب أسود متعلم، ويرون في ذلك مصدرًا للخطر على مصالحهم وباعثًا على التمرد، وحتى قراءة الإنجيل كانت ممنوعة على السود، وكان هذا الحظر يشمل الأحرار السود أيضًا وليس فقط العبيد، وكانت القراءة وتعليمها تعتبر جريمة يعاقب عليها القانون، وإذا تكررت فقد يعدم المعِّلم الأسود.

وكان تعلم القراءة وتعليمها عمليات سرية ومعقدة وخطرة يقوم بها السود في أماكن سرية أو بطرق ملتوية، مثل سرقة الكتب وحفظ النصوص ثم البحث عن رموزها في الكتب المسروقة، أو إبداء الإعجاب بالسادة الأطفال لتشجيعهم على إلقاء النصوص التي تعلموها والتظاهر بمرافقتهم للتعلم منهم وسرقة كتبهم، كانت قصصًا تنم عن مغامرة وشجاعة وذكاء واستنتاج وتخمين واستفزاز غرائز التعلم التي أودعها الله في الإنسان.

إن الكلمة قوة يدركها الطغاة أكثر من المستضعفين ويدركون أيضًا أن الجماهير الأمية تكون سهلة الانقياد، فكانت عمليات حرق الكتب وحظرها والرقابة عليها، وكانت الرقابة على الكتب وما زالت رديفًا للحكم!.

وفي القرن الخامس قبل الميلاد أحرقت كتب بروتاغوداس في أثينا،

وفي القرن الثالث قبل الميلاد أمر الإمبراطور الصيني شيهوانغ تي بإحراق جميع الكتب في البلاد، وكان يشرف على عمليات الإعدام هذه ويتابعها بنفسه، وفي منتصف القرن التاسع عشر أسست في الغرب جمعية لملاحقة الكتب التي تشجع على الرذيلة وناشريها، وقد نجحت الجمعية في دفع الحكومات الأمريكية إلى اعتقال العشرات من المؤلفين والمثقفين، وقد انتحر خمسة عشر منهم على الأقل في السجون، وأتلفت مئات الأطنان من الكتب، وكان من أقوال كومستوك -مؤسس هذه الجمعية-: إن العالم سيكون أفضل لو لم تكن ثمة قراءة.

ولدينا في الحضارة العربية الإسلامية المغول الذين حرقوا ملايين الكتب، والأوروبيون الذين سرقوا الكتب والآثار.

وهكذا فإن القراءة لا تقدم دائمًا ثراءً داخليًّا؛ فالعملية نفسها التي تملأ نصا بالحياة، وتستخلص منه ما يوحي به وتضاعف تنوع معانيه، وتعكس فيه الماضي والحاضر وطاقة المستقبل، يمكن أيضًا أن تستخدم من أجل تشويش النص والقضاء عليه، فكل قارئ من القراء يحقق لنفسه طريقة قراءته الخاصة به التي تنحرف أحيانًا عن النية الأصلية للنص، لكنها لا تمثل بالضرورة تزويرًا، غير أن القارئ يستطيع تزوير النص عن قصد إن أراد عند وضعه في خدمة عقيدة معينة وإساءة استعماله في تبرير الاعتباطية والغبن والعنف، وإن كان ذلك للمحافظة على منافع شخصية أو لإضفاء الشرعية على الظلم والنظم الخاطئة.

obeikandl.com

في الخطاب الإعلامي للعمل الإسلامي

يبدو من نافلة القول الحديث عن أهمية الإعلام، وقد تقدمت وسائل الإعلام ومؤسساته وبخاصة في مجال الإعلام الفضائي وشبكات الإنترنت، حيث أمكن تغطية الكرة الأرضية بالرسائل الإعلامية وإيصالها إلى أي شخص في أي مكان بالصوت والصورة، وإمكانية التحاور وتبادل الرأي مع المعلومات والحصول على معظم المعلومات على قدم المساواة تقريبًا بين جميع الناس.

وتحتاج الأمة والدعوة الإسلامية اليوم إلى منظومة عمل إعلامي تفعّل هذه المؤسسات وتجعلها في سياق النهضة والإصلاح وليست أداة هدم وإفساد، والعمل على ربط العمل الإعلامي بالدعوة الإسلامية ليكون صاحب رسالة مبنية على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والتأثير في الناس على نحو يفعِّل الموارد والإمكانات المتاحة ويحشد كل الطاقات للبناء والتنمية.

وحتى يكون الإعلام في موضعه الصحيح في شبكة النهضة والإصلاح فإنه مطلوب منه:

(١) الشمول:

شمول في الرسائل والوسائل، وشمول في المستقبلين، فالعمل الإعلامي منظومة متكاملة تستوفي صيغًا وشرائح ووسائل كثيرة..

أ. صحافة عامة وسيارة: صحف ومجلات يومية وأسبوعية.

ب. مجلات وأبحاث ودراسات علمية محكمة.

ج. مجلات عامة بين السيارة والمحكمة شهرية غالبًا.

د. مجلات وقصص أطفال.

هـ. كتب عامة ومتخصصة.

و. أفلام ومسلسلات سينمائية وتلفزيونية.

ز. مسرحيات.

ح. ندوات ومؤتمرات.

ط. فرق فنية وفلكلورية.

ي. فنون جميلة، تشكيلية، أو غيرها..

وشمول في المعالجة والاهتمام والتغطية، اقتصاد، سياسة، ثقافة، تنمية، سكان..

(٢) النسبية:

أ. نسبية الخطأ والصواب، وذلك يعني أن ثمة ما هو أكثر صوابًا وخطأً وكمالاً، وجواز تعدد الصواب، واختلاف مراتب الخطأ، ويقتضي ذلك بالضرورة إفساح المجال للآراء ووجهات النظر المختلفة مهما تباينت.

ب. نسبية الأداء والإنجاز والكمال، ويقتضي ذلك بالضرورة البحث المستمر عن الأكثر صوابًا وكمالاً، والسعي الدائم للاقتراب من الصواب والأفضل، باعتباره هدفًا مثاليًّا يصعب، بل يستحيل الوصول إليه، لكنه يظل هاجسًا يدفع إلى التطوير والحوار والمراجعة.

obeikandl.com

(٣) التراكم والاستيعاب والإبداع:

الإحاطة ببرامج وأعمال إعلامية أخرى وسابقة ورصدها ومتابعتها، وإخراج عملنا الإعلامي وفق ما يطور المشروع الإعلامي كله، ويسد النقص ويحقق الاحتياجات ويميزه عن غيره.

(٤) التكامل والتنسيق:

تحديد إنجازات المؤسسات الأخرى ودورها ومهماتها، ووضع العمل الإعلامي في سياق العمل وفي مواقع تمنع التكرار والازدواجية، أو حدوث فراغ وتقصير

(٥) التخصص:

أ. السعي في استيفاء التخصصات والاحتياجات.

ب. توزيع الأدوار والأعباء وفق الاستعدادات والتخصصات.

(٦) اعتبار التغير المستمر في المعلومات والأحداث والتقنيات:

ويقتضي ذلك بالضرورة الإحاطة الدقيقة والشاملة بمجالاته ومهنه، والتعليم المستمر وإعادة التأهيل وفق المتغيرات المستمرة.

(٧) التفكير المستقبلي الدائم في الأحداث والتغيرات والاحتياجات لاستيعاب التغيرات والتكيف معها ومواجهة حالة الرمال المتحركة التي تشمل السياسة والتقنية والحضارة والمجتمعات، وحالة التطور المستمر المذهل في مدخلات حياة الناس واقتصادهم وتعليمهم، أو ما يطلق عليه عصر المعلومات أو حضارة المعلومات.

(٨) الاهتمام بالآخر فكرًا ومؤسسات وبرامج ومواقف، واستحداث

التعامل المستمر معه ترجمة أو تنسيقًا أو استيعابًا أو مواجهة..

(٩) المرحلية:

أ- تحديد المراحل وفهمها واستيعاب علاقاتها المتدرجة والمتداخلة.

ب- التعامل مع المرحلة بما يلائمها، وتحديد أولوياتها واحتياجاتها.

(١٠) الموازنة:

أ. بين الطموح والممكن.

ب. بين ما يجب تغييره أو تحقيقه، وما يمكن تغييره أو تحقيقه.

(١١) السعي في اكتساب أصدقاء ومؤيدين، أو تحييد الناس وتجنب استعدائهم على أقل تقدير، بما في ذلك الغرب رسميًّا وشعبيًّا.

(١٢) المعالجة التفصيلية للقضايا والموضوعات والابتعاد عن التعميم، أو التأييد أو المعارضة المطلقة.

(١٣) تجنب الاتهام والشتم والتعرض بالتجريح للحكومات أو المؤسسات أو الأشخاص، لا يمنع ذلك من الانتقاد والمعارضة في إطار التحليل والدراسة.

(١٤) الاعتماد قدر الإمكان على حشد الأدلة والمعلومات والبيانات من جميع المصادر، المحايدة منه خاصة.

(١٥) ثمة موضوعات وقضايا تزداد أهميتها لدرجة أنها أصبحت موضع اهتمام العالم كله، وقد تحكم في المستقبل العلاقات الدولية، وربما الحروب كقضايا البيئة، والسكان، والتوطين، والثقافات، والتنمية البشرية، ولتلاحظ مثلاً مؤتمرات القمة العالمية: ريو (٩٢) قمة الأرض، فيينا (٩٣) حقوق الإنسان، القاهرة (٩٤) السكان والتنمية، كوبنهاجن (٩٥) التنمية الاجتماعية، اسطنبول (٩٦) التوطين والإسكان.